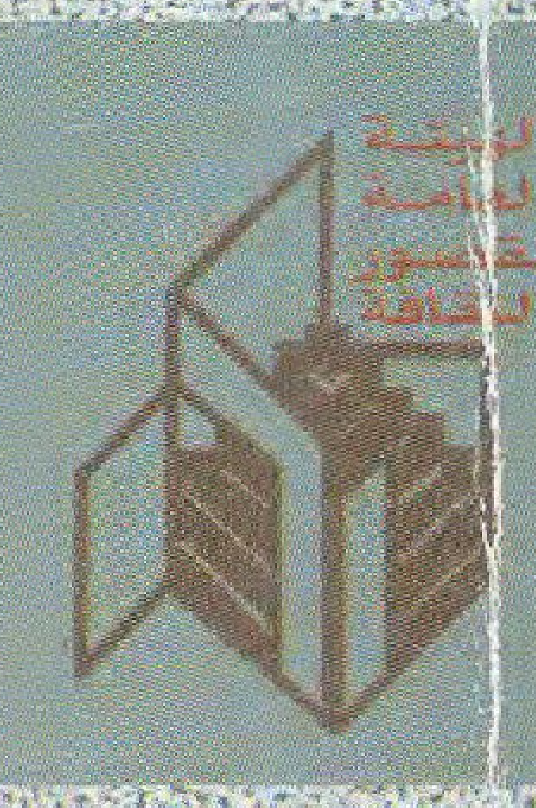
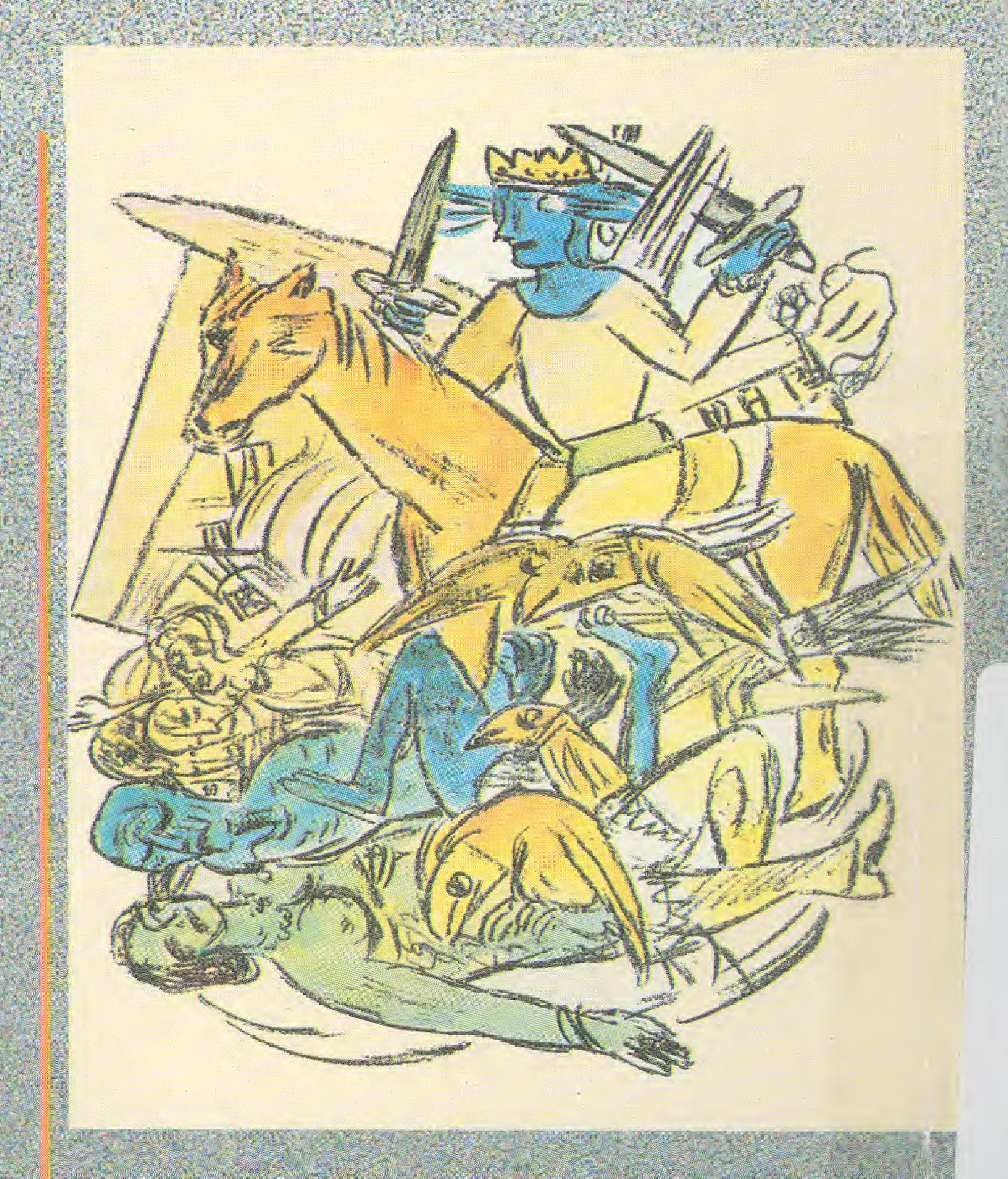




تدابير ضد السلطة

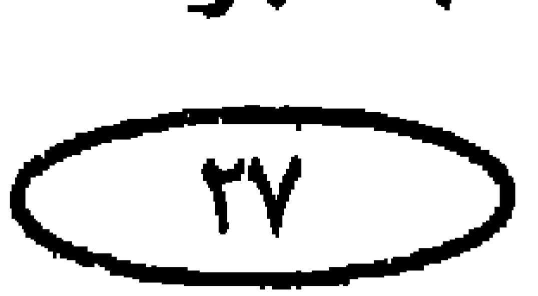
(مختارات من القصة الألمانية فى القرن العشرين)



ترجمة وتقديم: د. محسن الدمرداش



آفاق عالمية
سبتمبر ٢٠٠٣



تدابير ضد السلطة

(مختارات من القصة الألمانية فى القرن العشرين)

ترجمة وتقديم : د . محسن الدمرداش



الهيئة العامة لقصور الثقافة

آفاق عالمية

تدابير ضد السلطة

مختارات من القصة الألمانية في القرن العشرين

د. محسن الدمرداش

● تصميم الغلاف : محمد بغدادى
● لوحة الغلاف : « فارس الرؤيا »
للفنان : ماكس بيكمان
(١٨٨٤ – ١٩٥٠)

● المراجعة اللغوية : أشرف عويس

● الطبعة الأولى : ٢٠٠٣
رقم الإيداع : ١٣١٦٠ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى :
I.S.B.N: 977 - 305 - 530 - 2

● الطباعة والتنفيذ :

الشركة الدولية للطباعة
المنطقة الصناعية الثانية قطعة ١٣٩
شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
ت : ٨٣٣٨٢٤ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤

آفاق عالمية : سلسلة شهرية تُعنى بنشر ترجمات مختارة

المراسلات : باسم رئيس التحرير على العنوان التالي :
١٦ أ ش أمين سامي - القصر العيني - رقم بريدي : ١١٥٦١

مقدمة

يقدم هذا الكتاب مختارات قصصية من الأدب الألمانى فى بلاد أوروبا الثلاثة ؛ ألمانيا والنمسا وسويسرا . وتعرض تلك النصوص المختارة تعدد الاتجاهات الأدبية المتتابعة فى القرن العشرين والمعبرة عن تأثير الحربين العالميتين ، وكذلك عن تأثير الاختراعات والمبتكرات العلمية والصناعية ذات السرعة الشديدة ، وتفجر الطاقات العقلية حتى وصلت إلى اللامعقول .

ها هو ذا الأدب الذى يدور حول تحليل الثقافة وتصوير موقف الإنسان منها وفيها ، يمثله توماس مان ، ويتصل بهذا النوع كذلك هرمان هسه ، الذى أضاف إلى تحليله عمقا فلسفيا رائعا . كما أن هناك الأدب المتشائم الذى ترتابه الحيرة فى الوجود فيقدمها بصور مختلفة . من ممثلى هذا الأدب فرانس كافكا ، الذى يخفى نقدا حادا وجدية أليمة وراء الظاهر الضاحك .

إلى جانب هذه الألوان ذات الصبغة الفلسفية نجد اللون التصويرى . كما نجد نزعة النقد الاجتماعى التى تغلبت على عدد من الأدباء الذين يتخذون لهم مذهبا إجتماعيا معينا ينادون به

أو يناضلون من أجله ؛ مثل برتولد بريخت الذى بدأ بالهجوم على البرجوازية وتحول إلى داعٍ للاشتراكية ، خاصة فى أعماله المسرحية بعد عام ١٩٣٠ .

وإذا ما وقفنا وقفة عند نهاية الحرب العالمية الثانية لننظر إلى أدب الحرب أو أدب النكبة ، سنجد من أعظم ممثليه كل من فولفجانج بورشرت الذى صور الأرض الخربة والنفوس المحطمة بأسلوب فريد يأخذ بالقلب ويثير الفكر ، وإريش كستنر الذى احتوت أعماله الصائبة على النقد اللاذع والحسرة المريرة . أما « جماعة ٤٧ » الأدبية المهمة التى احتضنت فريقا كبيرا من الأدباء والشعراء عام ١٩٤٧ ، بعد أن أوقفت سلطات الاحتلال الأمريكى مجلة « النداء » فكانت تجتمع ويعبر أعضاؤها عما يجيش فى صدورهم ويتلون أعمالهم . ثم تطورت وأصبحت تجتمع فى أوقات محددة وأصبحت لها جوائزها وأصبح الناشرين يدعمونها بكل إمكانياتهم . ونال جائزة « جماعة ٤٧ » عدد من الأدباء الموهوبين مثل هينريش بل وجونتر جراس ، اللذين حصلا على جائزة نوبل عامى ١٩٧٢، ١٩٩٩ .

أخيرا يقدم هذا الكتاب أمثلة لدور الأديب النمساوى هوجو فون هوفمنستال فى الرومانتكية الجديدة ، ولإنجازات الأديبين السويسريين ، فريدرش دورينمات الذى بحث ببساطة فى

أعماله ؛ وخاصة مسرحية « السيدة العجوز » عن صورة للمجتمع عبر المسرح ، وكذلك ماكس فريش الذى تتضح رمزيته ؛ وخاصة عبر مسرحيته « مشعلو الحرائق » .

(المترجم)

(أ)
فى الشرفة

(فرانس كافكا)

إذا دخلت أى فارسة بهلوانية مسلولة أمام جمهور لا يكل ولا يمل فى حلبة السيرك على فرس يتأرجح فى دوران مستمر تحت قيادة رئيس قاسٍ ذى تلويح دائم بالكرباج لشهور طويلة بلا انقطاع ، يبدأ عدو الفرس وتمشى هى وتحرك خواصرها وتلقى بالقبلات للمشاهدين ، ويستمر العرض مع العزف المتواصل من الفرقة الموسيقية مع الدوران الخطير المصحوب بتصفيق الاستحسان المتقلب بين قوة وضعف من أيد وكأنها فى الحقيقة ماكينات حدادة – وربما يجرى أحد المشاهدين عبر الشرفة بخطوات طويلة حتى يصل لحلبة السيرك ، وهنا يصدر الأمر بالوقوف إلى الآلات النحاسية ذات التأقلم السريع مع الفرقة الموسيقية .

أما هى فليست كما سبق ولكنها امرأة جميلة ، بيضاء ذات احمرار ، تتطاير تحقيقا لرغبة المتفرجين عدة مرات ، ويسبقها فى المسير أتباعها بزيهم الخاص وينهمك الرئيس فى تتبعهم بعينيه وهم فى خضوع واستكانة وسرعان ما يرفعها بعناية فوق

فرس أشهب ولا يستطيع أن يقرر بسرعة ضربه بالسياط لأن أحب الأحباب ستواجه الخطر؛ وأخيرا يقهر ذاته ويأتى بضربة سوط مدوية ، ويجرى الفرس ، ويتتبع قفزات الفارسة بنظرات حادة وتفتنه مهاراتها ويحاول قبل قفزة الموت أن يحذر بصيحات فزع إنجليزية ، وينبه السواس ثائرا ثم يشير بيده للفرقة الموسيقية حتى يقف العزف؛ وفى الختام يرفع [الفارسة] الصغيرة فوق الفرس المهتز ويقبل وجنتيها معتبرا ما أبداه الجمهور من إعجاب شديد غير كاف لها بينما تقف هى بين يديه على أطراف قدميها وقد ظهر التراب عليها ، وتريد أن ترفع ذراعيها ورأسها للجمهور حتى يشاركها بأكمله حظها .

وهكذا يقع بصر المشاهدين على هذه الجولة الأخيرة لها [فى حلبة السيرك] أما هو [الرئيس] فيغرق فى الأحلام وتبكى عيناه فرحا دون أن يدرى .

* * *

(٢)
جراسكوس الصّياد

(فرانس كافكا)

صبيان يجلسان على سور رصيف الميناء ويلعبان النرد، ورجل يقرأ جريدة على سلم النصب التذكارى مستظلا بتمثال البطل الملّوح بسيفه ، وفتاة تملأ برميلها من البئر ، وبائع فاكهة يجلس ببضاعته ويمد بصره إلى البحر . يبدو من ثقوب باب وشباك مؤخرة الخمارة رجلان يشربان خمرا . أما صاحبها فيجلس على منضدة وقد أخذه النعاس . زورق سريع يأتى وكأنه يطير فوق الماء ثم يتمهل ويدخل الميناء الصغير . ينزل منه رجل ويشد الحبل ذا العقد . رجلان آخران يأتيان بردائهما الأسود ذى الأزرار الفضية ، ويحملان خلف قائد الزورق جثمانًا فى نعش مغطى بملاءة حرير كبيرة منقوشة بالزهور .

لم يهتم أحد على رصيف الميناء بهؤلاء القادمين ، عند إنزالهم النعش على الأرض انتظارا لقائد الزورق حتى ينتهى من ربط الحبل . لم يأتهم أحد ولم يطرح عليهم أحد سؤالا بل ولم يلتفت إليهم أحد .

جاء القائد بعد أن استوقفته على الزورق امرأة مسترسلة

الشعر تحمل طفلا على صدرها ؛ وأشار لمنزل أصغر ذى طابقين يرتفعان تدريجيا تجاه البحر ، فأخذ الرجلان حمولتهما ومرا بها عبر بوابة سفلى قائمة على أعمدة هيفاء . فإذا بشاب يفتح أحد النوافذ ويتابع بعينيه دخولهما بحمولتهما البيت ، ثم أغلق النافذة بسرعة . وما أن صار الباب المصنوع بمهارة من خشب البلوط مغلقا ، حتى هبط سرب الحمام الطائر حول برج الأجراس على المنزل ، وكأنه قد وجد فيه غذاءه ، واجتمع أمام الباب . حمامة واحدة طارت حتى الدور الأول ونقرت على زجاج النافذة . يا لها من طيور ذات ألوان فاتحة وحركة خفيفة وتنعم برعاية فائقة ، حيث ألقت لهم السيدة من الزورق بنشاط شديد حبوبا ، فتجمعوا وطاروا إليها . دخل ذو القبعة الأسطوانية الرسمية إحدى الحارات الضيقة المؤدية بانحدار شديد للميناء . أمعن النظر فيما أحاط به وأحزنه . قطب وجهه ما رآه من قاذورات على الناصية ، فمر على سلالم النصب التذكارى وزحزح قشر الفاكهة بعصاه ، وما إن دق على باب الحجرة وأنزل قبعته الأسطوانية بيمينه ذات القفاز الأسود ، حتى انفتح الباب وخرج خمسون من الغلمان واصطفوا على جانبى الممر الطويل وانحنوا جميعا .

جاء قائد الزورق ، نزل السلم وحيًا السيد وقاده إلى الدور الأول ودار معه حول الساحة المحاطة بشرفات بسيطة البناء

مزخرفة ، ثم سارا معا ، والغلمان قريبون منهما ويتبعونهما فى إجلال واحترام ، حتى دخلا صالة باردة كبيرة فى الجانب الخلفى من البيت الذى لا يطل على منزل آخر بل فقط على جدار صخرى عار حالك السواد . كان الحمّالان مشغولين بوضع بعض الشموع الطويلة على رءوس النعش وإشعالها ، شريطة ألا يبزغ منها ضوء شديد بل خافت يكسر الظلام ويومض على الحيطان . أزاحوا الغطاء عن النعش ، فإذا برجل أشعث الشعر والذقن ؛ أسمر البشرة ، يبدو وكأنه صياد . يرقد بلا حركة ولا نفس وقد أغمض عينيه ، ولا يدل على أنه ميت سوى الجو المحيط به .

تقدم السيد نحو النعش ووضع يده على جبهة الراقد فيه ، ثم وقف على ركبتيه يصلى . أشار قائد الزورق لحاملى النعش ليتركوا الحجرة ، فخرجوا منها وتجمعوا خلف الباب بعد أن أغلقوه . إلا أن السيد مازال غير راض بهذا السكون ، فنظر لقائد الزورق الذى فهم وخرج هو الآخر من باب جانبى إلى حجرة مجاورة . فجأة فتح رجل النعش عينيه مازحا وأدار وجهه إلى السيد قائلا : من أنت ؟ وقف السيد على قدميه دون أدنى دهشة وأجابه : عمدة ريفا .

هز رجل النعش رأسه وأشار بذراعه الممتدة بصعوبة إلى المقعد وقال بعد أن لبى العمدة دعوته للجلوس : أعرف هذا

يا سيادة العمدة، لكننى أنسى كل شىء فى اللحظة الأولى ، ثم يعود لذاكرتى كل شىء دفعة واحدة ، لذلك فالأفضل أن أسأل حتى ولو كنت أعلم كل شىء . ويبدو أنك تعرف أننى جراسكوس الصياد .

قال العمدة : بالتأكيد أنك ستخبرنى الليلة بشىء . كنت فى نوم عميق ، ثم نادتنى زوجتى فى منتصف الليل : يا سلفاتور ! - هذا هو اسمى - انظر إلى الحمامة على النافذة ! وفعلا كانت حمامة ، لكنها كبيرة مثل الديك ، طارت نحو أذنى وقالت : غدا سيأتى الصياد الميت جراسكوس ، استقبله باسم المدينة . و و . . . .

أومأ الصياد برأسه ومر بطرف لسانه على شفتيه ثم قال : نعم ، الحمام سبقنى . لكن هل تعتقد يا سيادة العمدة أننى سأبقى فى ريفا ؟ .

أجاب العمدة : لا أستطيع أن أقول هذا حتى الآن . هل أنت ميت ؟ .

قال الصياد : نعم ، كما ترى . وقعت منذ أعوام ، ولعلها أعوام عديدة ، فى الغابة السوداء - فى ألمانيا - على صخرة ، عند مطاردتى للظبى . منذ ذلك الحين وأنا ميت .

قال العمدة : لكنك مازلت حيا .

قال الصياد : كأننى ، كأننى حى ؛ لقد ضل قارب موتى

طريقه ، توجيه خاطئ للدفة ، لحظة شرود القائد ، لقد تلّهى عنى بوطنى البديع . إننى لا أعلم ما كان ، لا أعلم سوى أنى بقيت على الأرض وأن زورقى يبحر فى المياه الدنيوية . هكذا أرتحل بعد موتى فى كل بلاد العالم بعد أن كنت فى حياتى لا أحب سوى أن أعيش فى جبالى .

سأل العمدة وقد قطب جبينه : وهل لك نصيب فى الحياة الأخرى ؟ .

أجاب الصياد : إننى دائما على هذا السلم الصاعد لأعلى . أخطو على هذا السلم الكبير الذى لا ينتهى ، مرة لأعلى وأخرى لأسفل ، مرة يسارا وأخرى يمينا ، دائما فى حركة . لا تضحك! .

رد العمدة محتجا : إننى لا أضحك .

قال الصياد : إنك رزين ! كنت دائما فى حركة . لكننى بلغت السمو وظهر أمامى الباب الأعلى ، ثم استيقظت فى مكانى القديم ، فى قاربى الموحش فوق المياه الدنيوية ، إن الخطأ الأساسى فى موتى ، باعتباره حدثا غير متكرر ، أنه قيدنى فى كابينة الزورق ، التى تدق يوليا ، زوجة قائد الزورق ، على بابها وتأتينى فى نعشى بشراب صباح البلد التى نزلنا بساحلها . ها أنا على برش - من ينظر إلىّ يغتم - وأرتدى كفنا قذرا - شعرى وذقنى رماديان وأسودان ، لا ينفكان من بعضهما البعض ، قدماى مغطاتان بإيشارب كبير مزخرف بالزهور وقد

تنسلت خيوطه الحريرية منذ زمن بعيد . فوق رأسي تضيء شمعة الكنيسة .على الحائط أمامى صورة صغيرة لأحد قاطنى الأدغال الذى يوجه رمحه نحوى ويحتمى بدرع ذى نقش بديع . كثيرا ما يواجه المرء على السفن مثل هذه المشاهد الغبية ، إلا أن هذا الذى أمامنا ، بلغ ذروة الغباء . أما صندوقى الخشبى فهو خال تماما . عبر ثغرة فى الحائط الجانبى يأتى الهواء الدافئ فى ليالى الجنوب ، وأسمع لطمات الماء على الزورق القديم .

قبل رقودى هنا كنت الصياد النشط جراسكوس، طاردت ظبيًا فى وطنى ؛ الغابة السوداء ، ووقعت . كان كل شيء بنظام . تتبعته ، وقعت ، نزفت فى واد عميق ، مت ، ثم كان على هذا النعش أن يحملنى إلى الحياة الأخرى .مازلت أذكر كم كنت سعيدا حين اضطجعت لأول مرة على هذا البرش . لم تسمع الجبال منى ما سمعته هذه الحيطان الأربعة اللاتى كن وقتها مصدرا للآمال .

سعدت بحياتى وموتى ، وقبل أن أدخل ألقيت علبة الخرق والحقيبة وبندقية الصيد ، التى طالما حملتها فخورا ، ثم أتونى بالكفن كما يأتون العروس بثوب زفافها ، وبقيت هنا وانتظرت ثم كان سوء الحظ، و . . .

أشار العمدة بيده معلنا مواساته وقال : يا له من حظ سئ . لكن ألم ترتكب أى ذنب؟ .

قال الصياد : مطلقا ! كنت صيادًا ، وهل هذا ذنب ؟ أقمت بوصفى صياد فى الغابة السوداء حيث الذئاب ؛ راقبت وأطلقت النار وأصبت وسلخت الجلد ، هل هذا ذنب ؟ حلت البركة على عملى حتى حملت لقب ، أكبر صيادى الغابة السوداء ، هل هذا ذنب؟ .

قال العمدة : لست كفئا لأحكم الحكم الأخير ، بيد أننى لا أجد ذنبا . لكن من المذنب إذا ؟ .

قال الصياد : قائد الزورق ، مادام يقوم بعمله ، لن يقرأ أحد ما أكتبه هنا ، لن يأتى أحد ليساعدنى ، حتى إن وجبت مساعدتى ، سوف تبقى كل أبواب ونوافذ البيوت مغلقة ، الجميع سيدخلون فراشهم ويغطون رءوسهم ، وتصير الأرض كلها مضيفة ليل لى . إنها فكرة جيدة ، فلا أحد يعرف عنى شيئا ، وإن عرف عنى ، لن يعرف مكانى ، وإن عرفه لن يجدنى فيه ، وهكذا لن يستطيع أحد أن يساعدنى . إن فكرة الرغبة فى مساعدتى مرض وجب علاجه فى الفراش .

أعرف هذا ولن أكتبه طلبا للمساعدة وأنا ممعن الفكر فيه – هذا هو حالى الآن ، لا أتمالك نفسى – . لكن يكفى لطرد تلك الأفكار – إن جاز لى أن أدعى – أن أقلب عينى فيما حولى واستحضر ذهنى هنا ، حيث أنا الآن ومنذ مئات السنين .

قال العمدة : أمر غريب ، غريب . – هل تفكر فى أن تبقى معنا فى ريڤا ؟ .

وضع الصياد يده على ركبة العمدة مبتسما وقال ساخرا : لا أعتقد . لا أعلم شيئا سوى أننى هنا لا أستطيع شيئا . زورقى بلا دفة ، تقوده رياح تهب عليه من مدّاب الموت .

* * *

(٣)
لوسيدور
(ملامح كوميديا لم تكتب بعد)

(هوجو فون هوفمنستال)

نزلت السيدة مورسكا فى جناح صغير بأحد الفنادق فى وسط المدينة ، وذلك فى نهاية السبعينيات ، حيث كانت تحمل اسما ليس بالمجهول أو المشهور لأحد الأعيان ، ولها ولأولادها ممتلكات ، اعتمادا على بياناتها ، فى الجزء الروسى من بولندا ، لكنها حاليا واقعة تحت الحراسة أو تحت مصادرتها من ملاكها الحقيقيين . هكذا يبدو موقفها مزعجًا ، لكنه مؤقت ، فها هى ذى قد سكنت مع ابنتها البالغة أرابلا وابنها اليافع لوسيدور وخادمة عجوز ، فى ثلاث حجرات نوم وصالون بفندق تطل نوافذه على شارع كونتنر . هنا علقت ، لاستقبال الضيوف، بعض صور كبار العائلة ولوحة نحاسية ورسومًا منمنمة على الحائط ، ووضعت مفرشا من القطيفة القديمة ذا تطريز رمزى على منضدة مستديرة ذات قدم واحدة ، فوقها الأباريق

وسلة صغيرة من الفضة توضح ملامح الطراز الفرنسى فى القرن الثامن عشر . هنا تسلم الرسائل وتستقبل الزائرين ، وبما أن لديها كما هائلا من الاتصالات مع كل الجهات ، فسرعان ما تميز صالونها ، حتى صار أحد الصالونات غير محدودة الهوية ، ولم يلق « الاعتراف » أو « الرفض » بسبب حدة مقيميه . غير أن السيدة مورسكا هى دائما كل شىء، لا هى بالفجة أو المملة ، وهى من سلالة متميزة فى الجوهر والسلوك وتتمتع بجمال غير معتاد . هذه الأم التى ما يأتيها أحد بين الساعة الرابعة والسادسة إلا ويجدها دائما مع مجموعة ما ، أما ابنتها فهى ليست دائمة التواجد ، وابنها لوسيدور الذى بلغ الثالثة أو الرابعة عشر من عمره فلا يعرفه سوى المقربين .

كانت السيدة مورسكا ذات ثقافة حقه لا تحوى أى تفاهات . فى عالم ڤيينا الشاسع ، الذى أقرت انتماءها الغامض إليه دون أن يكون لها معه سوى احتكاك جانبى ، كان موقفها « باعتبارها امرأة متعالمة » ذا صعوبة بالغة . بيد أن رأسها قد حوت كما متشتتا من المعايشات والإحساسات والضلال والحمية والخبرات والمخاوف بدرجة جعلت جهدها فى الإمعان فيما تخرج به من الكتب بلا فائدة ، حوارها يعدو من موضوع لآخر ويجد معبر انتقال بطريقة أبعد ما تكون عن الاحتمال ويستطيع قلقها أن يثير الشفقة - إذا ما سمعنا حديثها ،

نعرف دون أن تحتاج هى للإفصاح أنها تعانى من هوس السهاد وقلبها يحترق فى هموم واستنتاجات وآمال خائبة - غير أنه أمر فكه ومثير للانتباه بشكل ملحوظ أن يتم الإنصات إليها ، وهى تصل لما تريد دون أى ميل منها إلى التحفظ . كانت باختصار ذات سذاجة ولكن من ألطف الأنواع . امرأة عطوف غير عادية وفى المقام الأول جذابة . لكن حياتها الصعبة ، التى ضاقت بها ذرعا ، أدت بها إلى الارتباك الذى جعل منها وهى فى الثانية والأربعين من عمرها شخصية خيالية . أغلب أحكامها وتعبيراتها فريدة فى نوعها وذات روحانية كبيرة ؛ لكن نتائجها تكاد تكون دائما خاطئة ولا تتناسب مع الآخرين أو مع ما تؤدى إليه معهم من علاقة . فما اقتربت من أحد إلا ويبدأ اهتمامها به ، ويختل نظامها بالكامل وتتصرف بلا تبصر إذا ما رأت صورة غير تلك المنعكسة بداخلها لأولادها . كانت ترى أرابلا ملاكا ولوسيدور شيئا صغيرا حادا ذا عواطف ضئيلة . أرابلا تفوق عالمها آلاف المرات ولوسيدور يتناسب مع عالمه هذا بتميز كامل . أرابلا فى الحقيقة صورة طبق الأصل من والدها الراحل : متعاظم ومستاء ونافذ الصبر ووسيم ، سرعان ما يحتقر الآخريين ولكن احتقاره محجوب بطريقة بارعة ، الرجال يحترمونه ويحسدونه ، ونساء كثيرات يحبونه على الرغم من جفاف فؤاده . وعلى العكس من ذلك فإن لوسيدور الصغير ليس لديه سوى الفؤاد وأريد هنا أن

أقول إن لوسيدور لم يكن شابا بل فتاة واسمها لوسيلا . فكرة أن تبدأ الابنة الصغيرة فترة إقامتها فى ڤيينا وهى مقنَّعة ، مثلها مثل ما للسيدة مورسكا من ومضات فكرية أخرى ، تأتى بسرعة البرق بخلفياتها وتداخلاتها ذات التعقيدات المتميزة . هنا تعود الفكرة فى المقام الأول إلى مناورة مدهشة ضد عم عجوز غامض ، لكنه لحسن الحظ مازال حيا ويعيش فى ڤيينا - كل هذه الآمال والاستنتاجات كانت غاية فى الغموض - وربما اختارت بسببه تلك المدينة لإقامتها . لكن التنكر كان له فى الوقت نفسه مميزات أخرى واقعية تماما وتحتل مكان الصدارة . الحياة مع ابنة واحدة أيسر منها مع اثنتين مختلفتين فى السن ؛ وذلك لأن بينهما حوالى أربع سنوات ؛ وهكذا كان تصرفها مع الصغرى ثم صار من الأفضل الوصول لوضع أنسب لأرابلا ، وهو أن تكون الابنة الوحيدة وليست الكبيرة ؛ كما يستهدف نوعا من السياسة التى تؤدى إلى أن « الأخ » الصغير الجذاب يضيف للكينونة الجميلة نقشا بارزا .

بعض الظروف العارضة جعلت ومضات السيدة مورسكا الفكرية لا تستند بالكامل على الخيال فقط ، حيث ربطت بطريقة فريدة من نوعها الوقائع والحقائق بما يبديه خيالها ممكنا أو جائز الوقوع . لقد وجب منذ سنوات تقصير شعر لوسيلا الناعم ، حين أصابتها حمى التيفود وهى فى الحادية عشر من عمرها .

فضلا عن هذا كانت لوسيلا ولعة بركوب الخيل مثل الفتيان ، وهذا ما كان شائعا وقتها ، حيث ركبت الخيل دون سروج مع صغار أولاد الفلاحين الروس فى مغاسل الدواب . ارتضت لوسيلا التنكر وربما ما سواه ، وكانت طويلة البال كما اعتادت اللا معقول بمنتهى اليسر . علاوة على ذلك منحها خجلها الشديد فكرة أبهجتها : وهى ألا تظهر فى صالون الضيافة ويبدو تصرفها طبيعيا باعتبارها فتاة شابة . كانت الخادمة العجوز هى الوحيدة التى تعلم السر وتكتمه ، وكل من عداها لم يلحظ شيئا . لم يجد أحد ما يلفت النظر ، وذلك لأن الإنسان عموما لا يستطيع أن يرى ما هو موجود . لم يظهر ما يفضى بسر لوسيلا ما عدا خاصرة رفيعة شابة . إن الأمر فى الحقيقة لم يظهر بعد للعيان ، ولا مظنة فيه ، ولكن كلما حدث تحول تظهر لوسيلا العروس أو بعض من أنوثتها ، وتأخذ الدهشة عالمها المحيط بأسره .

فتاة شابة جميلة وأنيقة حسب كل الأذواق ، مثل أرابلا لم تبق وقتا طويلا دون كم كبير أو قليل من المعجبين . أكثر هؤلاء أهمية كان فلاديمير ، شاب ذو جمال باهر ، وخاصة كتفاه الرائعان . لم يتمتع فقط بسعة المال ، بل أيضا بالاستقلال التام ، فهو يتيم بلا إخوة . كان والده ضابطا نمساويا ، وأمه كونتسة من عائلة شهيرة على بحر البلطيق . هكذا تمثلت الزيجة

النفسية فى فلاديمير من بين كل من تطلعوا للارتباط بالشابة أرابلا . كما انفرد بميزة خاصة أخذت بعقل السيدة مورسكا ، حيث كان عبر علاقاته العائلية على اتصال بهذا العم الذى يصعب التعامل معه وذى الأهمية ولا سبيل إليه . من أجل هذا العم جاءوا إلى ڤيينا وصارت لوسيلا لوسيدور . هذا العم الآهل بطابق كامل فى قصر «بولو» بشارع« ڤالن»، وكان فى صباه متحدثا ، يستقبل السيدة مورسكا بفتور ، على الرغم من أنها أرملة ابن أخيه (بالأحرى : حفيد ابن عمه) لم تستطع أن تقابله إلا فى زيارتها الثالثة له ، ولم تلق منه بعد ذلك أى دعوة على الإفطار أو حتى على كوب شاى . بيد أنه قد سمح على مضض بأن يأتوه بلوسيدور «لقد صار من هؤلاء السادة كبار السن الذين كرهوا النساء ، صغارا كن أو كبارا . على الرغم من ذلك كان الأمل ضعيف أن ينال شاب من أقربائه اهتماما كبيرا منه ، ولو لم يحمل الاسم نفسه ، لكن هذا الأمل الضعيف كان ذا قيمة لاحدود لها فى وضع بالغ التأزم . ذات مرة زارته لوسيدور وحدها بأمر الأم ، لكنه لحسن حظها لم يقابلها ، وخرجت الأم عن طورها ، وخاصة بعد أن بقى الأمر على ما هو عليه وكأن العلاقة المهمة قد انقطعت ، ومن أجل إعادتها صار فلاديمير الآن عبر علاقته المزدوجة بحق رجل المستقبل . ومن أجل تحريك الموضوع تمت الاستعانة بلوسيدور بطريقة لا يكاد يحس

بها مخلوق عندما زار فلاديمير الأم والابنة وأتت المصادفة أن أعجب فلاديمير بالغلام ودعاه بعد أول لقاء إلى نزهة معه ممتطيا صهوة جواده . قبل الدعوة شاكرا بعد نظرة سريعة لأرابلا والأم . هكذا كان ميل فلاديمير لأخى حبيبته الصغير أمرا بديهيا ، كما أنه نادرا ما كان هناك ما هو أجمل من نظرة إعجاب صريحة من عينى صبى لطيف فى الرابعة عشر من عمره .

دائما ما أزداد انحصار فكر السيدة مورسكا على فلاديمير ، مما ذهب بصبر أرابلا ، كما هو الحال فى معظم مواقف أمها ، وجعلها تبدأ بامتعاض ، على الرغم من تقديرها لفلاديمير ، وأن تداعب أحد منافسيه ، وهو السيد أمفنجر ؛ شاب لطيف من « يترول » ذو أصل مزدوج من الفلاحين والأشراف ، غير أنه لم يرد في ذهنها مطلقا كزوج ليس له مثيل . وما إن أقدمت الأم ذات مرة باللوم فى حياء على أرابلا التى لاتعامل فلاديمير كما يستحق ، حتى جاءت أرابلا برد رافض يفوق ما تشعر به من استهانة وبرود تجاه فلاديمير . وفجأة غزا الهوى فؤاد لوسيدور، أو لوسيلا ، وتلاعبت بها مشاعر جارفة من الخوف والسخط والألم معا . أذهلتها أختها أرابلا الغريبة عليها دائما ، وبدت أمامها فى هذه اللحظة بشعة ، ولم تستطع أن تقول لنفسها إن كانت تحبها أم تكرهها . هكذا صار الأمر كله شقاء لها بلا حدود . خرجت لتسجن نفسها فى حجرتها . إذا ما قالت

لنفسها إنها ببساطة تحب فلاديمير ، فلعلها لن تدرك هذا . إنها تقوم تلقائيا بما وجب عليها على حين تنسال دموعها ولا تعى سببها . جلست وكتبت خطاب حب متوهج إلى فلاديمير ، ليس منها ولكن من أرابلا . كم تبرمت من تشابه خط يدها مع خط أرابلا حتى أجبرت نفسها على أن تتعود على خط آخر قبيح ، لكنها ظلت قادرة على الرجوع لخطها القديم . نعم هكذا تيسرت لها الكتابة ، ولم يعبر الخطاب إلا عن السعادة والصفاء ، مما جعله يعارض طبيعة أرابلا تماما، لكن هكذا كان هدفه وكان واجبه . كان شديد الغموض ، لكنه عاد للوضوح بطريقة تعبر عن انقلاب داخلى شديد . إذا ما استطاعت أرابلا أن تحب باستسلام ، سيؤدى هذا الحب إلى انفجار مفاجئ ويوقظها بصفعة ، هكذا تستطيع أن تعبر على أية حال بهذه الجرأة والازدراء عن نفسها ، عن أرابلا التى يعرفها الجميع . كان الخطاب عجيب ، مرسله غير مبال وبارد العواطف ، لكنه بقلم فتاة متيمة باستتار ، من الصعب اكتشاف حقيقتها . هكذا الحبيب لحبيبته ، دائما كائن لا يقدر . وأخيرا إنه خطاب لرجل يتمناه ويصدق ما فيه . هنا أسبق الأحداث وأقول إن الخطاب وصل بالفعل ليد فلاديمير وهذا ما حدث بعد الظهر ، على السلم عبر تسلل هادئ ونداء وهمسة من لوسيدور كحوذى منفعل غير ماهر يرتدى أحد جياد حب أخته الجميلة . بالطبع حوى البريد رجاء

عاجلا حارا ، ألا يغضب إذا ما ظهر فيما بعد فى معاملة أرابلا تغير تجاه الحبيب وآخرين . كذلك صمم رجاؤه ألا تؤدى كلمة أو نظرة إلى كشف حبه وشوقه .

مرت بعض أيام اللقاء القصير بين فلاديمير وأرابلا ، التى ما أتت وحدها ولكن دائما مع آخرين . عاملها كما أرادت ، وهى عاملته كما اشترطت . شعر بالسعادة والتعاسة ، الآن فقط أدرك أنه يحبها ، مما دفعه بشدة لفقدان صبره . أدرك لوسيدور ، الذى يركب معه الخيل يوميا ولا يطيب له اللقاء مع سواه ، بهجة وتعجب مما يطرأ على مزاج صديقه من تغير ؛ نفاذ حب شديد متزايد . خطاب جديد يميل للرقة عن الذى سبقه ويحوى رجاء قلبيا مؤثرا ، ألا يضير بالسعادة المهددة فى هذا الموقف المعلق ، وأن ينهى هذه الاعترافات والرد بخط اليد عبر لوسيدور . كل يومين أو ثلاثة يذهب خطاب ويأتى آخر . يعيش فلاديمير أياما سعيدة ، وكذلك لوسيدور . تغير النغم بينهما وأصبح موضوع حديثهما لا ينفذ . ما ينزلان عن فرسيهما فى إحدى الغابات ألا ويسلم لوسيدور خطابا جديدا ، ويبدأ باهتمام ذى رهبة ملاحظة أسارير القارئ . أحيانا ما يطرح أسئلة تكاد تكون غير متحفظة ؛ غير أن انفعال الصبى الغارق فى الحب ، وذكاؤه الذى يزيده جاذبية ورقة ، أخذ بعقل فلاديمير وجعلاه ، وهو الكتوم المترفع ، يعترف أن من الصعب عليه ألا يتكلم مع

لوسيدور عن أرابلا ، ها هو ذا لوسيدور يبدو أحيانا كأنه غلام صغير خبيث يعادى الفتيات بدهاء وسخرية . لا يأتى مطلقا بأمر تافه لأنه يعلم بعضا مما يمكن إدراجه تحت ما يسميه الأطباء «أعراض غير ظاهرة» لكن فلاديمير ، الذى لا ينقصه شعور بالعزة ، يعرف كيف يعلمه أن ما لديه من حب يربطه بمثل أرابلا ، هو خاص به ولا يقارن بما سواه . هنا تزداد روعة فلاديمير أمام لوسيدور الذى يرى نفسه ضئيلا لا حول له . يصل حديثهما إلى الزواج ؛ هذا الموضوع الذى يؤلم لوسيدور لأنه يحوى اهتمام فلاديمير بأرابلا الحقيقية وليس أرابلا الخطابات . كما يفزع لوسيدور من أى قرار أو تغيير وكأنه الموت ، فكرته الوحيدة هى إرجاء هذه الواقعة . هذا المخلوق المسكين يبذل ما يفوق الوصف حتى يتمالك توازنه ظاهرا وباطنا فى الموقف المتأزم أياما وأسابيع ، وقد فقد قدرته على مواصلة التفكير . ما إن وقعت عليه أعباء إبلاغ العم أمرا ، حتى بذل قصارى جهده . أحيانا ما يذهب معه فلاديمير ، حيث يستمتع العم غريب الأطوار بألا يفعل أى شىء من أجل الشباب ، وحديثه يوضح أن تلك الساعة معه تعنى اختبارا قصيرا لكنه مرهق بحق للوسيدور . أو يجثم على صدر العم شىء أكثر من أن يفعل أى شىء لأقاربه . لا يستطيع لوسيدور الكذب ويجب أن يطمئن أمه على كل شىء . الأم التى ما قل أملها فى العم إلا ونفذ صبرها ،

حيث يبدو أن لا شيء يؤدى إلى قرار بين أرابلا وفلاديمير . وبدأ هؤلاء التعساء ذوو الارتباط المالى بها ، على الرغم من ظاهرها البراق ، يعتبرونها إحدى من لا يرتجى منهن فائدة مالية . اتضح خوفها وكظمت نفاد صبرها لكل من حولها ، وخاصة للمسكين لوسيدور ، الذى اختلطت الأمور الصعبة فى رأسه . بيد أن عليه فى مدرسة الحياة الغريبة التى يزورها حاليا ، أن يتلقى بعض الدروس الأكثر رقة كانت أو شدة .

لم يصف أحد أرابلا مطلقا بأنها ذات طبيعة مزدوجة .إلا أن هذا الوصف قد عبر عن نفسه ، حيث كانت « أرابلا الصباح » رافضة ومتدللة ودقيقة وواثقة فى نفسها ومادية وجافة بدرجة تصل بها للشطوط .أما « أرابلا الليل » التى كتبت لحبيبها على أضواء الشموع ، فهى ملقية لكل ما فى قلبها ومتلهفة بلا حدود . هذا ما جاء به الخط بالصدفة ليتناسب مع المكنون سرا فى ذات فلاديمير ، الذى ، ككل من سواه ذو جانبين ؛ نهارى وليلى ، زاد أحدهما على الآخر أو نقص . كبرياء ببعض من الجفاف ، وطموح بلا دناءة ، واجتهاد دائم عريض الآمال ، جميعهم يواجهون خلجات النفس ، أو بالأحرى لا يواجهون بل يختبئون فى الظلام ؛ يتوارون حتى يأتى بصيص من الأمل ويصبحون دائما على استعداد للغوص حتى يصلوا لهدفهم العسير . إحساس يمكن أن يتجه نحو حيوان ما، كلب أو أوز

عراقى ، ويسيطر على نفسيته وقتا ما .إنها فترة انتقاله من صباه لشبابه ، التى لا يميل لذكراها غير أن بعضا منها مازال فى داخله موحشا لم تجتازه أى فكرة ، وخال من الإرادة ، والآن جاء ضوء ضعيف زاخر بالأسرار ، إنه حب أرابلا الأخرى الخفية . والآن إذا ما صارت أرابلا بالمصادفة زوجته وحبيبته ، لظل معها كل يوم ، وما أقر لنفسه أبدا أن يعطى أوهام فترة طفولته المتأثرة بالرغبات فى أى مكان فى كينونته . إنه يفكر فيمن هى فى الظلام بطريقة أخرى . ماذا عسى لوسيدور أن يفعل إذا ما تاق الصديق إلى منال المزيد ، أى علاقة غير تلك السطور على الورق الأبيض ؟ كان لوسيدور وحيدا أمام خوفه واضطرابه وحبه . لم تساعده « أرابلا الصباح » ، نعم ، وكأن الجن قد ساقها ضده . وما إن صارت أكثر برودة وتقلبا ومادية ودلالا ، حتى توسم فلاديمير فى الأخرى وازداد رجاؤه لها ، وقد أتقن الرجاء حتى فقد لوسيدور القدرة على رده .ما وجده إلا وعجز قلمه الرقيق عن التعبير عن الرفض .وفى ليلة جال بخاطر فلاديمير أن يقابل أرابلا فى حجرة لوسيدور ، الذى سرعان ما استطاع بطريقة ما أن يغلق شباك الحجرة المطل على شارع كونتر مما جعل ظلامها يعوق المرء على رؤية يده . كما اتضح أنه قد وجب على الصوت أن يتحول إلى همس ، حتى لا ينتقل عبر الباب إلى حجرة الخادمة ، أين قضى لوسيدور الليل ؟ لم يكن الأمر سرا ،

بل كان له حجة غريبة ، أن تجمع أرابلا شعرها الجميل فى إيشارب كثيف ، وترفض برقه وحزم أن تحله يد صديقها . لكن هذا فقط هو ما أبت عليه فعله . مضت ليال عديدة لم تكن مثل هذه الليلة ، حتى أتت شبيهتها وازدادت سعادة فلاديمير ، وربما كانت هذه الأيام هى أسعد أيام حياته بأكملها . هكذا أكسبه ضمان سعادة الليل نغمة خاصة يقابل بها أرابلا فى الصباح . وابتهج حين علم أنها تختلف تماما فى الصباح ، حيث تتحكم بإعجاز في ذاتها ، ولم تنس نفسها ولو فى نظرة أو حركة . ورأى أنه من الملاحظ بمرور الأسابيع أنها تزداد معه برودة صباحا ورقة ليلا . لكنه أراد ألا يبدو أقل منها مهارة أو استسلاما . ورأى أنه ما ارتضى هذه الرغبة النسائية السرية إلا لينال حظ لياليه على نحو ما . وبدأ ينال أمتع لذة عبر كينونتها المزدوجة . أما أن تحبه من تبدو أنها لا تحبه مطلقا ، وأن تكون من تهب نفسها بلا حدود ، هى من تعرف كيف تعلن أنها لم ولن تمس ، فهو أمر عايشه حتى أخذ بعقله ، شأنه شأن الشراب المتكرر من كأس السر . لقد رأى أن عليه أن يركع شاكرا للحظ الذى أسعده بطريقة خاصة تتناسب مع سر طبيعته . قالها مستفيضا لنفسه وللوسيدور المسكين وكأنها أقصى إصابة قاتلة له فى الصميم .

أما أرابلا الحقيقية فقررت أن تولى ظهرها لفلاديمير فى هذه

الأسابيع بدرجة تحتم عليه ملاحظتها ، هذا إذا ما كان لديه دافع لعدم ملاحظة كل شيء . دون أن يميل هو إلى الكشف عما فى نفسه ، شعرت هى أن بينها وبينه ما لم يكن من قبل . فهمته دائما ومازالت تفهمه ، أصبحت ساعات نهارهما متجانسة ، وصارت الزيجة التى يمليها العقل فى استطاعتهما . أما أمفنجر ، فهى لا تتفاهم معه ولكنه يثير إعجابها . أما عدم إعجابها بفلاديمير فقد ازداد الآن ، وذلك نتيجة ما يبدو متذبذبا بينهما ؛ لم تدر له سببا فأفقدها صبرها علاقتهما ليست خطبة أو مجاملة ؛ ولم تعد تستطيع هى أن تعرف ماهيتها ، لكنها لا تحوى رضاها على أية حال . لا بد وأن يسعد أمفنجر لأنه حاز إعجابها ؛ هذا الإعجاب الذى مازال لفلاديمير دلائل خاصة على حوزته إياه . هكذا نشأ وضع عجيب بين الشابين . كل منهما يرى أن الآخر مدعاة إلى الاستياء ، أو ببساطة إلى الانسحاب من الميدان . كل منهما لا يري اعتدال مزاج الآخر سوى دافعا أساسيا للسخرية . لا يدرى أحدهم ما عساه أن يفعل مع الآخر الذى لا يرى فيه سوى الامتياز بالاختيال والخبل .

الأم فى أشد مواقفها ألما وعذابا ، حيث ازدادت الوسائل تعسرا ، وأعرض عنها المقربون ، وطلب الجميع رد الديون التى أقرضوها إياها تحت قناع الصداقة ، مما جعلها أقرب ما تكون للقرارات الشديدة . من اليوم إلى الغد سوف تنهى الإقامة فى

فينا وتودع معارفها بالخطابات ، وتبحث عن مأوى فى أى مكان ، حتى ولو فى دار عائلة الأوصياء . لم تتقبل أرابلا هذا القرار بيسر ، ولو أن الشك بمنأى عن طبيعتها . أما لوسيدور فعليها أن تطوى صدرها بخوف شديد على يأس بلا حدود .

ومضت ليال عديدة دون أن تتصل بالصديق . أما الليلة فقد أرادت أن تتصل به ، حيث تلقت ضربة وكأنها بالهراوة من حوار الليل بين أرابلا والأم ، وقرار رحيل لا رجوع فيه . وأرادت اللجوء لوسيلة ميئوس منها ، وتلقى بكل شيء وراءها ، وتعترف للأم بكل شيء ، وكذلك للصديق بكل صراحة عن حقيقة أرابلا لياليه ، هكذا وثب إلى ذهنها الخوف من خيبة أمله وغضبه .

اعتبرت نفسها قد ارتكبت جرما ، لكن فى حقه وحده ، ولم يجل الآخرون برأسها . لا تستطيع أن تراه الليلة ، فهى تشعر أنها ستذوب خجلا وخوفا واضطرابا . وبدلا من أن تحتضنه كتبت له لآخر مرة . إنه أكثر الخطابات خضوعا وتوسلا ، ولن يطوى شيئا أقل قدرا من اسم أرابلا الذى ستوقع به . إنها لن تأمل بحق أن تصبح زوجته ، بل كان أقصى أمالها أن تعيش معه عاما ، ولو قصيرا ، كحبيبته . إلا أن هذا لا يمكن ولا يجوز . ناشدته ألا يسأل . ألا ينفذ إلى صدرها ، وأن يأتى غدا لزيارتها ، ولكن وقتما جاء المساء ، الذى بعده بيومين ربما تكون قد ارتحلت .

ربما يعلم فيما بعد ويدرك أنها أرادت أن تضيف رجاء « بالحنو »

لكن كلمة العفو قد بدت لها غير معقولة من فم أرابلا ، لذلك فلم تكتبها . قل نومها واستيقظت مبكرا . وأرسلت الخطاب إلى فلاديمير عبر أحد خدم الفندق . مضى الصباح فى حزم المتاع ، وبعد الغذاء ذهبت إلى العم . فقد جاءتها الفكرة فى المساء ، إنها ستجد الكلمات والبراهين لتلين قلب هذا الرجل ، وتحقق المعجزة وتفتح محفظة النقود أبوابها ، تلك النقود التى لم تجل بخاطر أرابلا ، التى لم يشغل فكرها سوى أمها وحالها الراهن وحبها . سوف تسجد لأمها احتراقا ، وتقدم النقود أو الخطاب كتقدير وحيد لها - ماذا ؟ - كادت رأسها أن تتفجر بالألم والوخز - نعم ! إنه الأمر البديهى الوحيد ، إنه البقاء فى ڤيينا وأن يبقى كل شىء على حاله . ها هى ذى وجدت العم فى داره ، إلا أن تفاصيل هذا المشهد ، وكيفيته الغريبة ، لا يجوز هنا روايتهما . أقل ما يقال إنها استعطفته بالفعل ، وكاد أن يتخذ القرار لو لم ينحرف مزاج شيخوخته ، سوف يفعل شيئا ، لكنه لم يقرر متى ، وكفى ! والسلام! عادت للبيت وصعدت السلم ببطء ثقيل ، وفى حجرتها ، بين العلب والحقائب ، جلست القرفصاء باستسلام كامل لليأس واعتقدت أن صوت فلاديمير يأتيها من الصالون . شبت على قدميها وأنصتت .إنه فعلا فلاديمير ، لكنه مع أرابلا فى حوار عجيب بصوت يكاد يبلغ بارتفاعه الأذان .

وصل خطاب الوداع المليء بالأسرار من أرابلا إلى فلاديمير فى الصباح ، فأصاب صميم فؤاده ، وجعله يشعر أن بينهما ، وليس بين قلبيهما ، شيئا غامضا مازال يحبها ولا يستطيع أن يعلم ما علم ويدركه ويعفو أيا ما كان الأمر . لم يعد قادرا على الحياة دون تلك الليالى الى لا تدانيها ليال أخرى فى حياته . من الغريب أنه لم يفكر مطلقا فى أرابلا الحقيقية ، بل كاد أن يرى أن أرابلا الأسرار سوف تأتيه لتهدئتها وتشجيعها والفوز بها للأبد . دخل الصالون ووجد الأم وحدها ، قلقة ومضطربة وخيالية ، كعهدها منذ زمن بعيد . أما هو فلم تره هكذا من ذى قبل . قبل يدها وتحدث معها بطريقة تحرك المشاعر وتستدر العطف ، ثم رجاها أن تسمح له أن يقابل أرابلا وحدها . ابتهجت السيدة مورسكا . طارت فى السماء فرحا . هكذا هو حالها مع كل ما هو بعيد الاحتمال . أسرعت لتأتى بأرابلا وألحت عليها ، بعد أن تحولت كل الأمور بطريقة رائعة ، ألا تظن بالقبول . تعجبت أرابلا وقالت ببرود : ما بينى وبينه لا يؤدى لما فى رأسك فدفعتها أمها للصالون قائلة : من المحال معرفة موقف الرجال! ها هو ذا فلاديمير متحيرا متأثرا ، متوهجا ، مما زاد أرابلا إدراكا لحقيقة أن أمفنجر قد صدق بوصفه فلاديمير أنه إنسان غريب . رجاها فلاديمير ، بعد أن أخرجته عن طوره ، أن تزيح أخيرا عن وجهها القناع . إلا أن أرابلا لا تعرف بلا ريب أى قناع تزيح ،

فازداد فلاديمير لطفا وسخطا فى آن واحد ، أو بالأحرى خلطا لا يروق مطلقا لأرابلا ، مما جعلها تخرج من الحجرة ولم تترك معه سوى دهشة لا حد لها ، مما حداه على أن يعتبرها مجنونة حين دل موقفها الآن على أن ما بينهما له وجه ثالث . كاد فلاديمير أن يحدث نفسه ، لولا أن انفتح الباب الآخر فى الحجرة وألقى الداخل بنفسه عليه واحتضنه ثم ركع أمامه على الأرض . إنه لوسيدور ، لكنه ليس بلوسيدور ، بل لوسيلا ، فتاة جميلة تسبح فى دموعها ، وعليها رداء أرابلا ، وشعرها ، وكأنه شعر صبيان قصير، تخفيه تحت إيشارب حرير كثيف . إنه صديقه ذو الثقة ، وفى الوقت نفسه صديقته الغامضة ، حبيبته ، زوجته ، هكذا بدأ الحوار بينهما ، أو بالأحرى انتهت القصة وبدأت الكوميديا .

كيف أصبح المدعو لوسيدور فيما بعد زوجة لفلاديمير؟ وهل ما كان هنا فى الليل استمر ببلد أخرى فى الصباح ؟ هل ظلت الحبيبة سعيدة ؟ كل هذا لم ندونه بعد .

ربما يساورنا الشك أن فلاديمير شاب ذو قيمة حتى ينال كل هذه التنازلات . وعلى أيه حال فإن النفس الجميلة التى تجود بلا مقابل ، مثل لوسيلا ، لم يزح الستار عن سبب نشأتها على هذا الوجه فى مثل هذه الظروف الغريبة .

* * *

(٤)
الخبز

(فولفجانج بورشرت)

استيقظت فجأة ، وقد بلغت الساعة الثانية والنصف صباحا ، ثم تساءلت : لماذا استيقظت ؟ نعم ! يجوز أن يكون أحد قد اصطدم بالكرسى فى المطبخ . لقد كان الهدوء مسيطرا ، هدوء تام . وعندما تحسست بيدها الجانب الآخر من فراشها وجدته خاليا ، وهذا ما جعل الهدوء يبلغ قمته : لقد اختفى صوت أنفاسه . فقامت فى الظلام وتلمست طريقها حتى المطبخ حيث تقابلا وكانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف صباحا . لقد رأت شيئا أبيض اللون فى المطبخ فأضاءت النور ثم كانت المواجهة بينهما فى المطبخ فى الثانية والنصف صباحا .

لقد كان طبق الخبز فوق منضدة المطبخ ، ورأت أنه قطع الخبز لنفسه حيث كانت السكين بجوار الطبق ، إنه فتات الخبز على الغطاء ، وهى قد قامت بتنظيف مفرش المنضدة قبل أن يذهبا فى المساء إلى الفراش . هذا كل ليلة ، ولكن الآن هناك فتات بجوار السكين على المفرش . وهنا شعرت بالبرد القارص يتسرب عليها ببطء فنقلت عينيها عن الخبز .

قال متلفتا حوله فى المطبخ : أعتقد أن شيئا ما قد حدث هنا فأجابت : لقد سمعت أيضا ، ووجدته يبدو عجوزا فى رداء النوم أثناء الليل ، عجوزا بدرجة توضح سنه الذى بلغ ثلاثة وستين عاما . إلا أنه يبدو أحيانا فى النهار أصغر من ذلك . أما هو فيرى أنها تبدو بالفعل عجوزا إلا أنها تظهر فى رداء النوم أصغر إلى حد ما وربما يتعلق هذا بشعرها ؛ فدائما ما يظهر سن النساء فى شعرهن أثناء الليل ، هذا مما يجعل بعضهن يظهر عجوزا فجأة .

كان يجب عليك أن ترتدى حذاءك . هكذا تقفين حافية على الأرض الباردة . سوف تصابين بالبرد . لم تنظر إليه لأنها لم تستطع احتمال كذبه ؛ فهو يكذب بعد مرور تسعة وثلاثين عاما على زواجهما . فقال مرة أخرى : أعتقد أن شيئا ما قد حدث هنا ، وبدأ ينظر من زاوية . لأخرى : أعتقد أن شيئا ما قد حدث هنا ، وبدأ ينظر من زاوية لأخرى حوله بدون فائدة وقال مرة أخرى : لقد سمعت هنا شيئا ، لذلك أعتقد أن شيئا ما قد حدث هنا .

فرفعت الطبق من على المنضدة وبدأت تجمع فتات الخبز بأصابعها من على المفرش ، وقالت : لقد سمعت هذا أيضا ، ولكن لم أجد شيئا . فأخذت تساعده قائلة : تعالى ! فلم يكن هذا الصوت عندنا ، تعالى إلى فراشك وإلا ستصاب بالبرد

بسبب وقوفك على الأرض الباردة . فاتجه إلى الشباك قائلا : نعم يجوز أن هذا كان فى الخارج ولو أنى اعتقدت أنه هنا .

فرفعت يدها إلى مفتاح الكهرباء . أنا فكرت أنه من الواجب أن أطفئ الكهرباء وإلا سوف أرى الطبق من جديد . لا يجوز لى أن أنظر للطبق ثم قالت : تعالى ! ثم أطفأت النور وقالت : تعالى ! ، كل شيء على ما يرام فى الخارج . ودائما ما يجعل الريح مزراب السقف يصطدم بالحائط ودائما ما يشخشخ مع الريح .

وهنا تلمسا طريقهما سويا فى الظلام عبر الدهليز إلى حجرة النوم ، وتركت أقدامهما المبتلة علامات على الأرض . فقال : نعم إنه الريح ، لقد كان الريح طوال الليل : وقالت هى عند دخولهما الفراش : نعم لقد كان الريح طوال الليل، إنه مزراب السقف فقال مرة أخرى وكأنه نصف نائم : نعم ، لقد اعتقدت أنه فى المطبخ . هو المزراب . ولكنها لاحظت كيف يختلف رنين صوته إذا كذب ، وقالت : الدنيا برد ، ثم تثاءبت بهدوء قائلة : إننى أندس الآن تحت الغطاء ، تصبح على خير . فأجاب وأنت من أهله ، ثم أضاف : نعم ، فعلا هو برد جميل جدا . ثم ساد الهدوء من جديد ، ولكنها سمعت بعد دقائق عديدة مضغة بصوت منخفض وبحرص شديد ، فتنفست بصوت عال وبانتظام حتى لا يلحظ أنها مازالت مستيقظة . ولكن مضغه كان منتظما بدرجة جعلتها تنعس من جديد .

ولكنه فى الليلة التالية ، عندما رجع إلى المنزل ، قدمت له أربع قطع خبز على الرغم من أنه يأكل فى المعتاد ثلاثة فقط . وقالت : يمكنك أن تأكل أربعة ، ثم انصرفت ، فقال : لا أستطيع آكل كل هذا الخبز . آكل قطعة أخرى . لا أستطيع .

وهنا رأته كيف انحنى على المنضدة ولم يرفع رأسه ، مما سبب لها لحظة أسف . فقال لها وهو ينظر فى طبقه : يمكنك ألا تكتفى بأكل قطعتين فقط لا أتحمل كل هذا من الخبز فى المساء . فقالت : كل أنت ! كل ! وسرعان ما عادت بعد فترة وجيزة للجلوس معه على المنضدة .

* * *

(٥)
الموت

(توماس مان)

١٠ سبتمبر

جاء الخريف ، ولن يعود الصيف ، لن أراه أبدا . . .

بحر قاتم هادئ ، ومطر خفيف حزين ما رأيتهما صباح اليوم حتى بدأ وداعى للصيف واستقبالى للخريف . إنه خريفى الأربعين ، الذى جاءنى بقسوة ، وإذا بتقويم أيامه أمامى ، أقرأه بهدوء ، وأشعر بالتعبد والخوف الساكن . . .

١٢ سبتمبر

مشيت قليلا مع صغيرتى ، أسونسيون ، نعم المرافقة الصامتة ، التى ترفع بصرها من حين لآخر إلى بالمحبة . سرنا على الشاطئ حتى الميناء ، لكننا عدنا فى الوقت المناسب قبل أن نقابل واحدا أو اثنين من المارين . أثناء خطوات العودة ، أسعدتنى رؤية منزلى ، كم أعجبنى ، يبدو رماديا من فوق الهضبة ، والحشيش حوله ذابل مبتل والطريق إليه رخو طرى عبر

شاطئ البحر الرمادى . على الجانب الآخر طريق عام ، خلفه الحقول . لكنى لم ألتفت إليها لأنى لم أعبأ إلا بالبحر .

غالبا ما جاءتنى أسونسيون ، التى لا تكل ، وأتتنى ذات مرة بزهور وبعض من نباتات الشاطئ اليابسة المبتلة ، وما إن قبلت صغيرتى شاكرا ، حتى بكت لأننى « مريض » يجل عن الوصف ما كان لحبها الرقيق الحنون على من تأثير ذى أسى .

٢١ سبتمبر

جلست طويلا أمام الشباك ، وجلست أسونسيون على ركبتى . تأملنا معا البحر الرمادى البعيد ، وقد ساد السكون وراءنا فى الحجرة الكبيرة ذات الباب العالى الأبيض والأثاث ذى البطانة السميكة . وبينما أتحسس ببطء شعر صغيرتى الأسود المنساب على أكتافها الرقيقة ، عادت ذاكرتى لما مضى ، حيث الشباب والترحال فى كل العالم ، والوقت القصير الذى جالفنى فيه الحظ .

أتتذكر تلك اللطيفة البراقة تحت سماء لشبونة ؟ ما إن أهدتنى طفلة ، منذ أثنى عشر عاما ، حتى ماتت وذراعها النحيل حول رقبتى .

لها عينا أمها السوداوان ، إلا أنهما أكثر تعبيرا عن الإرهاق والفكر . أما أول ما أخذته من أمها فهو فمها الصامت الذى يصل بها لقمة جمالها بالابتسام الهادئ .

يا صغيرتى أسونسيون ! أتبكين لأننى مريض ؟ ماذا لو علمت أننى سوف أضطر إلى أن أتركك ! آه ، مال هذا والبكاء ! مال هذا والثانى عشر من أكتوبر . . .

٢٣ سبتمبر

نادرة تلك الأيام التى أستطيع فيها أن أسترسل فى ذكرياتى . أى سنوات تلك التى تدعونى للرجوع إليها ! إننى أنتظر فقط هذا اليوم الطويل المخيف الثانى عشر من أكتوبر فى العام الأربعين من عمرى .

ما عساه سيكون سوى ما وجب عليه أن يكون ! لا أخافه لكننى أظن أنه سيأتى ببطء أليم موجع ، هذا الثانى عشر من أكتوبر .

٢٧ سبتمبر

جاءنى الطبيب العجوز « جودهوز » من « كرولسهافن » عبر الطريق العام ، وتناول إفطاره الثانى معى أنا وأسونسيون ، أكل نصف ديك ثم قال : من الضرورى أن تتحرك ، يا سيادة الكونت ، وتستنشق هواء نقيا . لا تقرأ ! لا تفكر! لا تشغل بالك ! آه ، آه يالك من فيلسوف!

ماذا عساى أن أفعل ، هززت كتفى وشكرته على

مجهوداته ، فأعطى الصغيرة أسونسيون النصيحة وتأملها بابتساماته المتحيرة . وأخيرا وجب عليه أن يزيد جرعتى من «البروميد» حتى أستطيع أن أطيل نومى ولو بقدر ضئيل .

٣٠ سبتمبر

سبتمبر الأخير . لم يبق وقت طويل ، لم يبق وقت طويل . إنها الثالثة بعد الظهر ، لقد حسبت كل دقيقة باقية حتى بدأ الثانى عشر من أكتوبر . إنهم ٨٤٦٠ دقيقة .

لم أستطع أن أنام فى المساء ؛ حيث الرياح وهدير البحر والأمطار . رقدت وتركت الوقت يمر . فكر وقلق ؟ لا ! لقد اعتبرنى الطبيب جودهوز فيلسوفا لكن رأسى مجهدة ولا أستطيع سوى أن أفكر : الموت ، الموت!

٢ أكتوبر

اشتد تأثرى ، وإذا بى وكأننى منتصر . ما أشعر بهذا إلا وتحمل نظرات الناس إلى الشك والخوف ، وأراهم يعتبروننى مجنونا ، مما جعلنى أسأل نفسى مرتابا . لا ، لست مجنونا .

قرأت اليوم قصة القيصر فريدريش وتحاشيه زيارة المدينتين فلورنس ، وفلونتينوم بعد أن جاءه تنبؤ موته فيهما . وما إن دخل إحداهما ذات مرة حتى مات . لماذا مات ؟

التنبؤ ذاته تافه . . . قيمته فيما إذا كان له تأثير عليك . . . وإن كان للتنبؤ تأثير فهو إذن الفائز وسوف يتحقق ! كيف ؟ هل التنبؤ الذى ينبعث منى ويزداد داخلى ، أقوى من مثله الذى يأتينى من غيرى ؟ أيهما يساور المرء الشك فيه أكثر من الآخر ، موعد الموت أم مكانه ؟ .

آه ! يالها من علاقة وثيقة بين الإنسان وموته ! فى استطاعته وبرغبته واقتناعه أن يرتبط بموته ويشتاق إلى لقياه فى ساعة بعينها . . .

٣ أكتوبر

فى كثير من الأحيان ، عندما تسيل الأفكار أمامى مثل المياه القاتمة ، التى لا نهاية لها وتحجب الرؤيا ، تتداخل المتعددات وأدرك بطلان المدلولات .

ما الانتحار؟ أهو الموت الاختيارى ؟ لكن من منا لا يموت برغبته . إن تسليم الحياة والاستسلام للموت يحدثا دون فارق الضعف ، الذى دائما ما يكون نتيجة لمرض الجسم أو النفس أو لكليهما « الإنسان لا يموت دون أن يوافق على موته » . . .

هل أنا موافق؟ لابد وأن أوافق ، لأننى أعتقد أنه من الممكن أن أجن إذا لم أمت فى الثانى عشر من أكتوبر . . .

٥ أكتوبر

أفكر فيه بلا انقطاع ، بل ويشغلنى تماما - أعنى تساؤل متى

ومن أين علمت ؟ ولا أرفض الإجابة عليه ! علمت فى التاسع عشر أو العشرين من عمرى أننى سأموت فى يوم من أيام الأربعين وما تساءلت عن هذا اليوم ، حتى عرفته .

والآن ، هل اقترب هذا اليوم ؛ اقترب لدرجة جعلتنى استشعر أنفاس الموت الباردة .

٧ أكتوبر

ريح شديد وبحر هادر ووقع قطرات المطر على السقف . لم أنم طوال الليل ، جلست على حجر .

خلفى ظلام ومطر على هضبة ذات بيت قاتم ، حيث تنام الصغيرة أسونسيون ، صغيرتى أسونسيون! ها هى رغوات البحر العكرة أمام أقدامى .

أتامل طوال الليل وأفكر ، هكذا لا بد وأن يكون الموت ، هناك على الهضبة أو هنا ، سوف يكون ظلام أبدى مقبض . هل تبقى أو ستبقى أفكارى هنا وتصغى للأبد إلى عاصفة غير مدركة ؟

٨ أكتوبر

أريد أن أشكر الموت حين يأتينى ، لأن لقاءه أيسر من انتظاره . باق ثلاثة أيام خريف ويتحقق . كم أننى متشوق للحظة الأخيرة ، الأخيرة ! لعلها لحظة افتتان ، ذات جمال يجل عن

الوصف ! لحظة قمة اللذة ! ثلاثة أيام خريف ثم يأتينى الموت هنا فى حجرتى ، كيف سيلعب دوره ؟ هل سيكون سلوكه معى كسلوكه مع الدودة ؟ هل سيمسكنى من رقبتى ويخنقنى ؟ أم أنه سيدخل يده فى مخى ؟ ، لكنى أتصوره ضخما جميلا ذا جلالة جامحة . .

٩ أكتوبر

ما جلست صغيرتى أسونسيون على ركبتى حتى سألتها : ماذا لو لسبب ما فارقت الحياة ، أيكون حزنك شديدا ؟ فما كان منها إلا أن وضعت رأسها الصغيرة على صدرى وبكت بحرقة . ضاق عنقى من الألم .

ارتفعت حرارتى . رأسى ساخنة . وأرتعش من البرد .

١٠ أكتوبر

كان عندى ، كان عندى فى هذه الليلة ! لم أره ولم أسمعه ، لكنى تحدثت معه . ساخر يتصرف وكأنه طبيب أسنان ! قال : يا حبذا لو نتفق ! لكنى أبيت وقاومت ، أو بعبارة موجزة ، صرفته عنِّى .

« يا حبذا لو نتفق ! » ما أعجب هذا القول الذى اقشعر له بدنى ؛ قول رزين ، ممل ، بسيط ! لم أجرب هذا الشعور البارد الساخر بخيبة الأمل .

١١ أكتوبر (الحادية عشر مساء)

هل أعى ؟ آه ! هل أصدق أنى مازلت أعى !

منذ ساعة ونصف ، بينما كنت جالسا فى حجرتى ، جاءنى فرانس العجوز مرتعشا منتحبا صائحا : الصغيرة ! الطفلة ! آه ! أسرع ! .

أسرعت .

لم أبك ، بل فقط أصابتنى رعشة باردة .

راقدة فى فراشها وشعرها الأسود أحاط بوجهها الصغير الشاحب . جلست على ركبتى أمامها ولم أفعل شيئا أو أفكر فى شىء . - لقد جاء الطبيب جودهوز .

« سكتة قلبية » قالها وهز رأسه دون مفاجأة . وكأنه يعلم كل شىء ؛ هذا اللّخمة المخبول !

أما أنا - هل فهمت ؟ آه ، وكأننى بمفردى معها ، هدير المطر والبحر ، ونواح الريح فى ماسورة المدخنة ، هويت بقبضتى على المنضدة ، فى لحظة واحدة اتضح الأمر لى ! منذ عشرين عاما وأنا أنتظر الموت فى يوم بعينه ، وأكتم فى صدرى سر عدم قدرتى على فراق هذه الصغيرة . لم أقبل أن أموت اليوم بعد منتصف الليل ، وياليته كان ! رددته بعد أن جاءنى ، فأطاعنى وذهب إلى صغيرتى ، هل أتيت أنا بالموت لفراشك الصغير ؟ هل قتلتك يا صغيرتى أسونسيون ؟ يا لها من كلمات غليظة حقيرة أقولها فى أمر مبهم منطو على الأسرار !

انعمى بحياتك ، انعمي بحياتك هناك ! وهناك ربما ألقاك من جديد . انظرى ! لقد تقدم عقرب الساعة ، ومصباحى الذى يلقى ضوءه على وجهك الصغير سرعان ما ينطفئ . إننى أمسك يدك الصغيرة الباردة وأنتظر . سيأتينى فورا وسوف أومئ بالإيجاب وأغلق عينى إذا ما سمعته يقول : «يا حبذا لو اتفقنا ! » .

* * *

(٦)
تدابير ضد السلطة

برتولد بريخت

لاحظ السيد كوينر عند تحدثه أمام الكثير من المستمعين فى إحدى الصالات أن كما كبيرا منهم قد بدأ يتقهقر ثم انصرف . وما إن نظر حوله حتى رأى خلفه السلطة وهى توجه إليه السؤال :

– ماذا تقول؟ .

فأجاب السيد كوينر:

– لقد أدليت برأيى فى السلطة .

وبعد رجوع السيد كوينر لتلاميذه سألوه عن جرأته ، فأجاب : إن جرأتى ليست قادرة على تحطيم تلك السلطة غير أنه من الواجب أن يكون عمرى أطول من عمرها ، ثم روى لهم القصة التالية :

فى يوم من أيام اللاقانون أتى أحد العملاء منزل السيد إجا الذى تعلم أن يقول « لا » وأراه ترخيصا صادرا باسم حاكم المدينة ومقررا أن كل منزل يطأه حامله بقدمه فهو له بكل ما فيه

من طعام ، وأنه ينال كل يطلب ، لأن أى شخص يقع عليه بصره يكون فى خدمته .

جلس العميل فى مقعده وطلب الطعام ثم اغتسل ورقد فى فراشه موجها نظره للحائط قبل نعاسه سائلا بدون كلمات : أين خدمتك لى ؟ وهنا لفه السيد إجا بالغطاء ثم طرد الذباب ويبدأ خدمة الحراسة التى تستمر حتى الاستيقاظ . وقد قام بهذه الخدمة سبع سنوات متجنبا قول كلمة واحدة . أما الآن بعد مرور السنوات السبع فقد تضخمت سمنه هذا العميل نتيجة لزيادة طعامه وتعدد أوامره حتى مات . وما كان من السيد إجا إلا أن لفه بغطاء قديم هالك وجره خارج البيت ، ثم غسل السرير وبيض الحيطان وتنفس الصعداء قائلا :« لا » .

* * *

(٧)
أقرب الحيوانات إلى قلب الأستاذ

برتولد بريخت

سألوا الأستاذ عن الحيوان الذى ينال تقديره الأعلى ، فأجاب بأنه الفيل ، وعلل ذلك بقوله : يجمع الفيل بين القوة والدهاء . والمقصود هنا ليس ذلك الدهاء البسيط الذى يدبر النجاة من مطاردة أو الحصول على الغذاء ، بل هو دهاء يوجه القوى لتحقيق المهام الكبرى . وحيثما كان الفيل نجد له تأثيرا كبيرا . ومع ذلك فهو طيب يفهم الدعابة ، وكما يجيد الصداقة يتقن أيضا العداء . وهو كبير الحجم والوزن ومع ذلك فهو ذو سرعة فائقة . وكما توجه زلومته جسمه الضخم فإنها تستطيع حمل أصغر أطعمته حجما ، حتى الفول السودانى . أما أذناه المتحركتان فلا تنصتان إلا إلى ما تهويان . ويمكن أن يبلغ من الكبر عتيا وهو لطيف العشرة مع الكل وليس مع الفيلة فحسب . ونجده محبوبا وموهوبا فى كل مكان . وحتى فكاهته فهى قادرة على إحاطته بالاحترام . أما جلده السميك فلا تخترقه السكين بل يكسرها هو ، مع أن صاحبه ذو قلب رقيق . فكما نراه حزينا

نراه غاضبا وعلى الرغم من حبه للرقص ، فإنه يفضل أن يموت وحيدا فى الأدغال . ولا يحب أطفال البشر فحسب بل كل الصغار .وعلى الرغم من أن ما يلفت النظر إليه حجمه وليس لونه ، فلا أحد يأكله . ثم أنه يستطيع العمل باجتهاد . ويشرب عن طيب خاطر وهو منشرح الصدر . وله دوره فى الفن أيضا . حيث إنه المنتج الوحيد للعاج .

* * *

(٨)
حكاية الكرسى الخيزران

(هرمن هسه)

قبع الشاب فى حجرة منفردة فوق السطح أملا أن يكون رساما ، إلا أن الصعاب واجهته ومر به الوقت وقد اعتاد على الجلوس أمام المرآة عدة ساعات محاولا أن يرسم نفسه حتى ملأ بالفعل كراسة الرسم بلوحات نال بعضها كامل رضاه .

وقد تحدث ذات مرة إلى نفسه قائلا : هذه فى الحقيقة لوحة ناجحة إذا ما أخذنا فى الاعتبار أننى مبتدئ . ما هذه التجاعيد المثيرة حول الأنف ؟ أبدو وكأن فى بعض من ملامح الفيلسوف ، أو ما هو قريب منها . كل ما أحتاجه هو أن أنزل بزاوية الفم إلى أسفل قليلا ويكون ذلك تعبيرا حقيقيا ومباشرا عن « الاكتئاب » .

أما إذا تأمل هذه الرسومات بعد فترة وجيزة فسرعان ما لا تنال إعجابه ولا ترضيه ، لكنه يخرج من ذلك بوجوب تحقيق التقدم وتكليف النفس دائما بالكثير .

هكذا لم يتعايش الشاب مع رسوماته ومتراكمات حجرته ، سواء فى أحسن الأحوال أو فى أسواها ، فهو لا يزيد عليها

ولا ينقص منها ، كما يفعل غالبية الناس، حيث لا يتأملهما إلا قليلا ويكاد لا يتعرف عليهما إلا بصعوبة .

ثم إذا فشل مرة أخرى فى رسم صورته ، يبدأ القراءة العابرة فى كتب تدله كيف نجح الآخرون الذين بدأوا مثله فى تواضع وغمور ثم أصبحوا مشهورين . يقرأ تلك الكتب بارتياح ويجد فيها مستقبله الخاص .

وفى يوم من الأيام جلس فى حجرته مستاء ومكتئبا وبدأ القراءة عن رسام شهير ، وكيف أخذه الولع بالفن وأدى به إلى أن يكون رساما . وهنا وجد الشاب بعضا من التشابه بينه وبين هذا الفنان الهولندى ، فواصل القراءة حتى يعثر على ما بينهما من توافقات . فرأى من بين ما قرأ كيف استطاع هذا الهولندى أن يرسم كل ما وقع عليه بصره صغيرا كان أم كبيرا بكل حماس وبلا انقطاع على الرغم من سوء الأحوال ؛ حيث رسم ذات مرة قبقابا ومرة أخرى أحد كراسى المطبخ الماثلة لدى الفلاحين . وقد لقى هذا الكرسى الخشبى ذو المقعد الخيزران المضفر ، الذى لم يلتفت إليه أحد من قبله بالتأكيد ، حبا وإخلاصا وحماسا وانكبابا لدى الفنان الهولندى وأصبح واحدا من أجمل رسوماته . كما وجد مؤلف هذا الكتاب الكثير من التعبيرات الجميلة والمؤثرة عن هذا الكرسى الخيزران .

هنا توقف الشاب عن القراءة وبدأ التفكير فى وجود شىء جديد يجب أن يجربه . فقرر ، بما يتميز به من فورية ، أن يحاكى هذا القائد العظيم وينتهج سبيله إلى العظمة .

والآن بدأ ينظر حوله فى الحجرة ويلاحظ أن الأشياء التى يعيش بينها قلما شاهدها مشاهدة حقيقية . ولكنه لم يجد بينها كرسيا خيزران ولا قبقابا، فأخذه الهم واليأس لحظات وكاد يفقد حماسه كما هو الحال إذا قرأ عن حياة كبار الرجال : هنا وجد أن صغائر الأشياء والدلائل والأقدار العجيبة التى تلعب دورا مهما فى حياة الآخرين ، تتخلف عنه وتدعه ينتظر بلا جدوى . إلا أنه استجمع قواه من جديد وأدرك أن واجبه الآن هو أن يسلك الطريق الوعر للمجد . فعاد يتأمل كل ما فى حجرته الصغيرة حتى اكتشف أخيرا كرسى خيزران يمكن أن يناسبه تماما كموديل للوحته الجديدة .

وسرعان ما جذب الكرسى إليه بقدمه ويرى قلم الرسم الرصاص ووضع بلوك الرسم على ركبته وبدأ العمل، حيث أظهرت الخطوط الأولى الهادئة الشكل بقدر كاف، ثم مثل الصورة بالخطوط القوية السريعة وحدد المعالم بخطوط ثقيلة . وهنا استهواه ظل مثلث قائم فى أحد الجوانب فرسمه بخطوط أخرى غليظة . وهكذا استمر فى العمل حتى بدأ شىء يعوقه .

لكنه استمر لفترة وجيزة ثم أبعد الكراسة عنه متأملا رسمه فيها ، فرأى أنه أخطأ فى تصويره لكرسى الخيزران .

فعاد ورسم خطوطا بسرعة وبعنف ثم ركز عينيه مكشرا على الكرسى الذى لم يبد له على ما يرام مما أثار غضبه .

فقال بعنف ،« يا خيزران » ، يا شيطان ، لم أر بهيمة متقلبة مثلك! .

وما كان من الكرسى إلا أن طقطق قليلا وقال برزانة : بل انظر إلى فقط! إننى على حالى ولن أتغير .

فضربه الرسام بطرف حذائه ، فعاد إلى ما كان عليه وظهر فى صورة مختلفة تماما .

فصاح الشاب: ياغبى ! كل ما فيك معوج ومائل . وما كان من الكرسى إلا أن ابتسم قليلا وقال بلطف : هذا هو المنظور يا فتى ! .

فقفز الشاب بغضب وصرخ قائلا : المنظور! الآن يأتى هذا الولد ويريد أن يقوم بدور المدرس !انتبه ، إن هذا المنظور من شأنى وليس من شأنك ! .

لكن الكرسى لم يقل شيئا ، فسار الشاب خطوات عنيفة فى حجرته ذهابا وإيابا عدة مرات حتى بدا يسمع دقات العصا القوية على الأرض من جاره الشيخ العلامة الذى لا يطيق الضوضاء .

فجلس الشاب ووضع صورته التى رسمها لنفسه أمامه ،

ولكنها لم تنل إعجابه ، ووجد أنه يبدو فى الحقيقة أكثر جمالا وجاذبية .

والآن أراد أن يعود لقراءة كتابه ، لكن لا بد وأن يكون فيه الجديد عن هذا الكرسى الخيزران الهولندى الذى أغضبه وكان سببا للضوضاء . . . .

فبحث الشاب عن قبعته ذات الإطار العريض وقرر الخروج قليلا ، وتذكر أنه قد أصابه منذ وقت طويل عدم الرضى عن الرسم . فليس فيه غيز الشقاء وخيبه الأمل . كما أن أحسن رسامى العالم لا يمكنه سوى عرض ظواهر الأشياء ، وهذا لا يساوى شيئا لدى الإنسان المحب للتعمق ، وهكذا وضع الشاب تحت تأمله - كما فعل عدة مرات من قبل . . فكرة العودة إلى تطلعه القديم ليكون كاتبا . ومازال كرسى الخيزران قائما بمفرده فى الحجرة ويؤسفه أن صاحبه الشاب قد تركه وذهب بعد أن بدأت العلاقة تتوطد بينهما . لقد تكلم فى بعض الأحيان وهو يعلم أنه سوف يرشد الشاب لبعض مما له قيمة ، لكن للأسف قد فشلت التجربة .

* * *

(٩)
أرتور يضايق كل الناس

(إريش كستنر) [1]

يؤيد صديقى أرتور فكرة أن العالم لم يدعو إلى نقد غير معتاد ذى قدر ضئيل من الجدية ، كما كان من المؤكد دائما على وجهه البرىء أنه لا يأتى بمكروه مما جعله هو ورفاقه لا يلفتون نظر المحيطين بهم وقد تمرد باستمرار على القوانين المألوفة عند الناس وعلى أوضاع الرخاء القائمة ؛ إلا أن تمرداه قد خلا من كل جدية ، مما يجعلنى أرشحه لاحتلال منصب البلياتشو إن وجد .

ليس من السهل دائما أن يسيطر المرء على هدوئه ؛ فغالبا ما يوقع أرتور كل من يرافقه من أصدقائه فى ظروف حرجة ، فأسوا ما فى الأمر أن ليس لأى شخص هيبة لديه ، وكان الصمت السلبى للمحيطين به يضايقه حيث لا يتكلم أحدهم على الرغم مما يجده مقللا للاحترام فى الآخرين .فلم ينل نابليون من

---

(١) Erich Kastner : Artur Argert Alle Leute . In : G . Albrecht (Hrsg), Welthumor . Berlin 1960 , S . 127 - 130 .

إعجاب أرتور ما ناله الماجن تل [١] ، ومن المحال معارضته .

لقد اضطررنا مؤخرا إلى أن نقف فى الأتوبيس الذى امتلأ عن آخره وفجأة سألنى أرتور بصوت عال : ما هذا المبنى يا يوناتان ؟ وأشار إلى الكنيسة متعجبا . وهل يجوز أنه لا يعرف أنها الكنيسة ؟ ثم غمز بعينه فقلت باقتضاب : هذا هو مركز المطافئ . فسأل مرة أخرى واضعا يده خلف أذنه : ماذا ؟ . أى أنه أظهر نفسه وكأن سمعه ضعيف . فقلت بصوت عال : مركز المطافئ ! فأشار برأسه مبتسما وقال : نعم ، نعم كما تصورت .

وما كان هذا حتى نظر الركاب من الشبابيك مندهشين وتفحصونا بأعينهم المليئة بالشك ، ثم توقف الأتوبيس وسار مرة أخرى فسألنى أرتور مشيرا للجامعة ما هذا ؟ فرددت عليه قائلا : هذه دار للأطفال البلهاء ! فأوما برأسه شاكرا وقال : جميل أنها للمخبولين الصغار . وكست البسمات الذهبية أساريره على حين بدأ القلق يسيطر على الركاب شيئًا فشيئًا ، ثم أضاف : إنه مبنى عملاق يا ناتان . فأجبته بصوت عال : نعم ، فالهواء منتشر جدا هنا ! أما الآن فسوف يظهر دار البلدية ! [٢] فقال : آه ، إنه مبنى هادئ ، أليس كذلك ؟ فأجابته : ليس فيه الكثيرون ، فبعض الناس يستجم فى سويسرا ، وبعضهم الآخر

---

(١) وليم تل بطل أسطورة رمى التفاحة - المترجم .

(٢) المقصود هنا فى الحقيقة المكتبة العامة - المترجم .

تجرى له عملية جراحية ، وغالبيتهم فى أجازتهم الرسمية ! وهنا ظهر استياء الركاب كلهم ، بل وضحك أحدهم متهكما . فقال أرتور: إننا نقلق السادة هنا ويجب عليك أن تخفض من صوتك ! فقلت : تمام يا أفندم ! [1] ولكننى أخشى ألا تفهمنى ! فابتسم بسعادة قائلا : إنى أتبعك كما تشاء ، فأنت تعرف المدينة أفضل منى بكثير والمهم أنى أسمع منك موسيقى ، ألم تلاحظ أن سمعى قد تحسن ؟ فقلت: تحسن بدرجة كبيرة . فقال : نعم ، إن أكل اللحوم لا يضرنى ولكن الطبيب نصحنى بالعدول عنها لأنها تسبب الروماتيزم . وهنا ظهر الذهول على الركاب فى جلستهم مما أعطانى الانطباع بأن استيائهم كاد أن يدفعهم لترك مقاعدهم . ولكن الأتوبيس واصل المسير عبر بوابة براندبورج فسأل أرتور مشيرا لها ولأعمدتها المتآكلة : من يسكن هنا ؟ فأجبته : هذا موقف المواصلات ! قال : والأحصنة التى فى أعلى ؟ قلت : هى تذكار لآخر أحصنة عربات الحنطور . قال : جميل ، ولكن هذه الحوذية [العربجية] شبه عارية . قلت : هذا رمز لتأثير دفع الضرائب . وهنا أصاب السعال راكبا وقورا ذا نظارة أنفية فازرق لونه ، وتقلقلت امرأة بدينة فى مقعدها كأنها

---

(١) المذكور هنا : Vereingetorix وهو اسم قائد القوات الجرمانية فى رواية « معركة روما » الشهيرة ، وهو يعبر عن الطاعة العسكرية عند تلقى الأوامر – المترجم .

تتشوى وقالت لأرتور : بوابة براندبورج فابتسم لها قائلا : معذرة يا سيدتى المحترمة ، هل آلمك الجلوس ؟ فصرخت المرأة البدينة وقد انهارت الدموع من عينيها قائلة : بوابة براندبورج ، فقال لى أرتور : هل دست على قدمها ؟ وهنا رأيت أنه من الأفضل أن ننزل من الأتوبيس ، فقلت له : لقد وصلنا ، فأشار أرتور إلى حديقة الحيوان سائلا : وماذا تعرض هذه الحديقة ؟ هنا وقف أحدهم وتحرك بسرعة موجها مظلته أمام وجهى وصاح : إذا قلت له إن هذا هو معرض أبناء الوطن فسوف أعطيك ضربة خلف أذنك تجعلك أصم ! فانحنى أرتور احتراما لهذا الصارخ فى وجهى قائلا له : شكرا جزيلا . فقلت أنا : اهدأ يا سيدى فأنا أعرف جيدا أن هذا هو ميناء تمبلهوف الجوى ، وسرعان ما ترك كل الركاب مقاعدهم وانتفضوا واقفين وتعالت أصواتهم بغضب ، فجلس أرتور وصرخت فتاة شاحبة اللون قائلة : لقد بدأ هذا الجنون عند الكنيسة ! ثم ولولت المرأة البدينة وقالت : بل وأصبحت الجامعة دارًا للأطفال البلهاء ! فردت الفتاة : كما جعل المكتبة العامة بلدية ! فقالت السيدة وهى تجفف دموعها : ثم صارت بوابة براندبورج موقفا للمواصلات ! وهنا تقدمت بسرعة لمدخل الأتوبيس وقلت للكمسارى : حاول من فضلك أن تسيطر على الركاب ، ثم قفزت .

وما كان من أرتور إلا أن انتظرنى على محطة الأتوبيس التالية حتى لحقت به فقال لى : كانوا لطافًا جدا وإن كانوا بحق ذوى حمية إلا أنهم أكثر إحاطة ! وفى أحد شوارع قلب برلين [(١)] اقترب من سيارة منتظرة وسأل المرأة الجالسة فيها وبين يديها كلب صغير: كم الساعة الآن ؟ فأجابت بصرامة : ليس معى ساعة . فقال أرتور: يا خسارة ! وظل واقفا بجوارها حتى مررت أنا من أمامه فرفعت قبعتى احتراما وسألته : كم الساعة ؟ فأخرج أرتور الساعة من جيبه وقال : الساعة الآن الثامنة إلا سبع دقائق يا سيدى ! فقلت له : شكرا جزيلا ! ثم أتجه إلى ميدان بوتسدام واتبعته ببطء فكادت المرأة أن تمزق قبعتها من الغيظ .

* * *

(١) الشارع المقصود هو VoBstraBe فى وسط برلين - المترجم .

(١٠)

« شيء ما سيحدث »

قصة مليئة بالأحداث

هينريش بل

من أعجب فترات حياتي تلك التي قضيتها موظفا في مصنع « ألفريد فونزيدل » . فأنا بطبيعتي أميل للتفكير والتفرغ أكثر منه للعمل . لكن الصعوبات المطردة تجبرني من حين لآخر على البحث عن وظيفة وذلك لأن التفكر والتفرغ كليهما لا يأتيان بشيء يذكر . وذات مرة بلغت صعوباتي مداها فوضعت ثقتي في مكتب العمل الذي أرسلني ومعي سبعه من شركائي في الشقاء في مصنع فونزيدل، حيث وجب علينا حضور امتحان القبول .

بدأ ارتيابي فور رؤيتي للمصنع ذي البناية الكاملة من الطوب الزجاجي ، لأن نفوري من المباني فاتحة اللون يعادل نفوري من العمل . كما ازداد ارتيابي عندما قدموا لنا الإفطار في مقصف ذي ألوان فاتحة براقة ؛ فجاءت النادلات الجميلات بالبيض والقهوة وشرائح الخبز وعصير البرتقال في دوارقه الجذابة . وبدت الأسماك الذهبية بكل عظمة خلف حيطان حوضها الزجاجي الأخضر .

وقد تمتعت تلك النادلات بدرجة عالية من المرح جعلتهن وكأنهن سيطرن من السعادة . ويبدو لى أن إرادتهن القوية سيطرت على دندنتهن بالأغانى ، التى امتلأن بها كما تمتلئ الفراخ بالبيض . وهنا أدركت ما مر على شركائى فى الشقاء مرور الكرام ، وهو أن هذا الإفطار جزء من الامتحان ، مما جعلنى آكل بانتباه شديد يتحلى به من يعلم تمام العلم أن عليه تزويد جسمه بالمواد المفيدة فقط . لهذا فعلت ما لا تستطيع قوة فى هذا العالم إجبارى عليه فسمحت لعصير البرتقال فقط بالدخول فى بطنى الخاوية وتركت القهوة وبيضة وقطعة خبز كبيرة ، ثم نهضت وخرجت متحفزا من المقصف .هكذا أصبحت أول زائرى قاعة الامتحان ، حيث استمارات الاستبيان فوق منضدة أنيقة ومحاطة بحيطان خضراء وأثاث تعبر عنه ألسنة مشاهديه بلفظة « ساحر » . ولم أر أحدا أمامى على الرغم من ثقتى فى أنهم يراقبون تصرفى وكأننى أحد المستعدين لعقد صفقة ويعتقد أن لا أحد يراقبه ، فأخرجت قلمى الحبر من جيبى وفككته وجلست على المنضدة وسحبت استمارة الاستبيان تماما كما يسحب الغضوب ورقة حسابه فى المطعم .٠.

السؤال الأول : هل ترى أنه من الصواب أن للإنسان ذراعين وقدمين وعينين وأذنين فقط ؟

وهنا استجمعت لأول مرة ثمار تفكيرى وكتبت بدون تردد :

إن إقدامى على العمل لا تكفيه أربعة أذرع وأربعة أقدام وأربعة آذان . فكم هى ضعيفة قدرات الإنسان .

السؤال الثانى : كم عدد التليفونات التى تستطيع أن ترد عليها فى وقت واحد؟

كان الرد على هذا السؤال يناهز أبسط معادلة رياضية فى السهولة ، لذلك كتبت فى الإجابة : إذا كانوا سبعة تليفونات فسوف يضيع صبرى من قلتهم أما إذا أصبحوا تسعة فسوف أشعر بأننى مكلف بما يكفى طاقتى .

السؤال الثالث : ماذا تفعل فى الإجازة ؟

وكانت إجابتى : لا أعرف كلمة إجازة ، فلقد حذفتها من قاموسى الخاص فى عيد ميلادى الخامس عشر ، لأن فى البدء كان العمل .

وبالفعل حصلت على الوظيفة وشعرت أن عملى على التليفونات التسعة لا يفوق فى الحقيقة طاقتى ، حيث كنت أصيح فى السماعات قائلا : تصرف فورا! أو أفعل أى شىء - لا بد من أن يحدث شىء ما - سوف يحدث شىء ما - يجب أن يحدث شىء ما . إلا أننى استعملت فى الغالب صيغة الأمر ، لأننى رأيت أنها تتناسب مع الموقف .

وكم كانت فترات راحة الظهيرة لطيفة حيث نتناول وجبة غنية بالفيتامينات داخل المقصف فى جو من المرح الهادئ .

وقد اكتظ مصنع فونزيدل بالكثير من هؤلاء المهووسين برواية تفاصيل سيرة حياتهم الخاصة ، شأنهم فى ذلك شأن الشخصيات الهوجاء التى تهتم بسيرتها بقدر أكبر من اهتمامها بحياتها ، فالمرء لا يحتاج معهم لأكثر من الضغط على الزر حتى يبدءون قيء أسرار حياتهم بكل فخر . فقد رأى بروشك ، وهو وكيل مصنع فونزيدل ، أنه حقق شهرة كبيرة لأنه كان يعول سبعة أطفال وامرأة مشلولة عن طريق عمله الليلى ووكالته التجارية الناجحة لأربع شركات فى الوقت نفسه ، هذا بالإضافة إلى أنه نجح فى امتحانين رسميين فى عامين بتقدير امتياز .

وحين سأله مراسل صحفى : متى تنام إذا يا بروشك ؟ أجاب : النوم هو أحد الآثام ! .

أما سكرتيرة فونزيدل فقد كان زوجها مشلولا ، وعملت فى التريكو لإعالة أبنائها الأربعة وفى الوقت نفسه حصلت على الدكتوراه فى علم النفس وتاريخ الطبيعة . كما كانت مربية للكلاب واشتهرت كمغنية فى البارات تحت اسم « المغوية رقم ٧» .

لقد كان فونزيدل نفسه من هؤلاء الذين يقررون عقد صفقاتهم فى كل صباح وهم مازالوا نصف نيام ، بل يقولون لأنفسهم : لابد وأن نأتى بشيء ، وهم يربطون حزام بالطو الحمام بمنتهى الحماس ، أو وهم يحلقون وينظرون متهللين

لشعر ذقونهم الذى تغطية رغاوى الصابون ، وهنا يصبح ما تبقى من هذا الشعر هو أول ضحية لإقبالهم الشديد على العمل . كما أن هذه الأعمال تيسر الأمر كثيرا مع هؤلاء ، فنسمع خرير ماء السيفون ويتم استعمال ورق التواليت . وهذا شىء قد حدث ، يتبعه أكل الخبز وكسر رأس البيضة المسلوقة .

إن أى شىء لا أهمية له ، يظهر عند فونزيدل وكأنه عملية مهمة ، فنراه كيف يضع القبعة على رأسه ويزرر البالطو مرتجفا . نظرا لما فيه من طاقة . حتى القبلة التى يعطيها لزوجته تبدو وكأنها صفقة ذات أهمية .

وإذا دخل مكتبه يقول لسكرتيرته وكأنه يحييها : لابد وأن يحدث شىء ما ! وهى ترد عليه بجرأة وسعادة : سيحدث ! ثم ينتقل من قسم لآخر ويصيح بسعادة بالغة : لابد وأن يحدث شىء ما ! والكل يجيبون : سيحدث شىء ما ! وأنا كذلك ، إذا دخل حجرتى أقول متهلل الوجه : سيحدث شىء ما ! .

ارتفع عدد التليفونات التى أقوم بخدمتها حتى أصبح فى الأسبوع الأول أحد عشر ، وفى الأسبوع الثانى ثلاثة عشر، وصار يروق لى وأنا داخل الترام فى الصباح أن أبتدع صيغ أمر جديدة أو ألاحق فعل« حدث » عبر أزمان مختلفة وأجناس مختلفة فى صيغة الاحتمال وصيغة الأمر ، فقلت لمدة يومين كاملين جملة واحدة أعجبتنى وهى : كان من الواجب أن

يحدث ، جملة أخرى لمدة يومين آخرين : كان من الواجب ألا يحدث .

إلا أننى شعرت بأن الأمر قد أثقل عاتقى حين حدث شىء بالفعل فى صباح يوم الثلاثاء ، حيث ما كدت أستقر على مكتبى حتى هجم فونزيدل على حجرتى وصاح : لابد وأن يحث شىء ما ! إلا أن شيئا غامضا بدا على وجهه ، جعلنى أتلكا عن أداء ذلك الرد المفروض علينا دائما بكل سعادة وسرور ، وهو « سيحدث شىء ما ! » . وطال تلكؤى عن الرد مما جعل فونزيدل ، الذى نادرا ما يرفع صوته ، يصرخ فى وجهى : أجب ! أجب كما هو مفروض ! فأجيب كارها وبصوت خافت مثل الأطفال ، الذى يدفعهم العند أن يقولوا إنهم غير مؤدبين ثم قلت بطريقة تعبر عن الإرهاق الشديد : سيحدث شىء ! وما كدت أتمها حتى حدث شىء بالفعل ، لقد سقط فونزيدل على الأرض وتدحرج حتى رقد على جانبه أمام الباب المفتوح . وعلمت فورا ، ما تأكد أمامى عندما قمت من على مكتبى وتوجهت لهذا الراقد ، أنه مات .

تخطيت فرنزيدل مذهولا وسرت عبر الممر حتى وصلت لحجرة بروشك ودخلت بدون أن أطرق الباب ، فإذا به جالسا على مكتبه وفى كلتا يديه سماعتا تليفون ويدون الملاحظات فى المفكرة بقلم حبر جاف فى فمه ، بينما يدير بأقدامه الحافية

ماكينة التريكو الراقدة تحت المكتب ، وذلك كمساهمة منه فى تدبير كساء عائلته . فقلت بهدوء : لقد حدث شىء! فبصق القلم ووضع السماعتين وسحب أصابع قدميه من ماكينة التريكو .

وسأل : ماذا حدث ؟ .

قلت : السيد فونزيدل مات .

قال بروشك : لا .

قلت : بلى ! تعالى معى ! .

قال : لا ، هذا مستحيل .

لكنه أدخل قدميه فى الشبشب وتبعنى فى الممر .

وما إن وصلنا إلى جثه فونزيدل حتى قال : لا ، لا ، لا، لكننى لم أرد عليه وضعت فونزيدل على ظهره وأسبلت جفنيه ثم بدأت إمعان النظر إليه .

أحسست وكأننى أحنو عليه ، كما اتضح لى ولأول مرة ، أنى لم أكرهه أبدا . لقد كان على وجهه ما على وجوه الأطفال الذين يعاندون ولا يتنازلون عن إيمانهم ببابا نويل مع أن دلائل عدم وجوده مقنعة .

وعاود بروشك الصراخ قائلا : لا ، لا ، فقلت له بصوت خافت : لابد وأن يحدث شىء . قال : نعم ، لابد وأن يحدث شىء .

وقد حدث شىء بالفعل ، حيث تم دفن فونزيدل وكلفونى

يحمل أكليل من الزهور الصناعية خلف نعشه، ليس فقط لأننى موهوب بالميل للتفكير والتفرغ ولكن أيضا لأننى أتمتع بشكل وهيئة يتناسبان مع الرداء الأسود . فقد كنت فى الحقيقة أبدو رائعا وأنا أحمل فى يدى إكليل الزهور الصناعية خلف نعش فونزيدل ، حتى إن مؤسسة الدفن الأنيقة قد عرضت علىّ العمل لديهم كمشيع محترف للجنازات . وقال لى رئيس تلك المؤسسة : لقد ولدت مشيعا ، وسوف تحصل على الزى الخاص ، أضف إلى ذلك وجهك البديع ! .

وسرعان ما أخطرت بروشك بأننى سوف أترك الخدمة لدية نتيجة شعورى بأننى لا أستنفذ عنده كل طاقتى وأن قدرا كبيرا من إمكاناتى يكمن فىّ ولا يستفاد منه على الرغم من سيطرتى على ثلاثة عشر تليفونًا . ولقد أدركت فور اشتراكى لأول مرة باعتبارى محترفا فى مسيرة تشييع جنازة ، أننى خلقت لهذا المنصب وخلق لى .

ها أنا أقف مفكرا خلف النعش ضمن تشييع الجنازة وفى يدى باقة زهور صغيرة على حين يعزف الموسيقيون إحدى حركات الرثاء من أعمال الموسيقار هندل ، وهى مقطوعة لم تنل قدرا مناسبا من التقدير . أما قهوة المدافن فهى المكان المألوف لقضاء راحتى بين مشاركاتى المحترفة فى الجنازات . إلا أننى أخرج أحيانا خلف بعض النعوش على الرغم من عدم تكليفى

بهذا وأشترى زهورا على نفقتى الخاصة وأرافق موظف الرعاية الاجتماعية فى مسيرته خلف نعش أحد المتشردين . كما أزور من حين إلى آخر مقبرة فونزيدل اعترافا له بالجميل ، لأننى اكتشفت بعد جنازته عملى المناسب الذى يستهدف التفكر وواجبى الأساسى فيه هو التفرغ .

وقد تذكرت فيما بعد أننى لم أهتم أبدا بالبضاعة التى كان فونزيدل يسوقها ؛ وأظن أنها الصابون .

* * *

(11)

تمثيلية ساخرة

(ماكس فريش)

جاءك فى أحد الأيام رجل لا تعرفه ، واضطررت إلى أن تعطيه بعض الحساء وقطعة خبز . فروى لك ما لاقاه من ظلم وأنه فى يوم من الأيام سوف يكون بلا شك الانتقام ، الذى تود ألا يكون منك . ولكنك وعلى أية حال لم تستطع أن تصرفه ، بل أعطيته . كما قلت ، الحساء والخبز بل والأكثر من هذا أنك صدقته بصمتك ثم بإيماءاتك وأخيرا بكلامك ، فقد قررت قبوله لأنك إن لم تفعل لاضطررت للاعتراف بأنك قد ظلمته وربما أرعبته . إنك لم ترد أن تخاف أو أن تصوب خطأك فى قبوله نظرا لما لذلك من عواقب . أنت تريد الهدوء والأمن ، وانتهينا ! أنت تستهدف الشعور بأنك إنسان طيب ومستقيم ؛ ولذلك فأنت لم تضطر إلى أن تعرض عليه المبيت عندك لأن الظلم ، كما سمعت منه ، قد أفقده فراشه . لكنه أعلن عن عدم رغبته فى فراش أو حجرة ، بل فقط مجرد مأوى ، كما قال إن « حجرة السقف » المهجورة ترضيه ، فضحكت أنت وأكد هو حبه لتلك الحجرة وسرعان ما أصابك أثناء ضحكك قلق من آخر

الأخبار عن إشعال الحرائق . إلا أنك ، كما قلت ، تريد الهدوء ، وعليه فليس أمامك سوى ألا تدع الشك يستيطر عليك . ولماذا لا ينام فى تلك الحجرة إذا أراد هو ذلك ؟ ما عليك إلا أن تدله على الطريق إليها وتريه ترباس الباب والوصلة التى يضع عليها السلم ومفتاح الكهرباء الذى يمكنه من إضاءة النور . بعد ذلك جلست بمفردك فى حجرتك تدخن سيجارة وتفكر مرارا فيما سبق ، ولا فائدة من أن تعود للجريدة وتقرأ ما بين سطورها حيث يجب على الإنسان أن يتحلى بالثقة وألا يشك فى شخص لا يعرفه . ولماذا تشك فى كونه مشعل الحرائق؟ لكنك دائما ما تعقد العزم على طرده غدا برفق وبدون أن يصيبه الشعور بأن الشبهة قد حامت حوله .أنت لا تعتزم تصويب خطأك الذى له كما قلت ، عواقب وخيمة ، بل عقدت عزمك فقط على أن تكون لطيفا وتطرده بطريقة هينة . لكنك لن تنام طوال هذه الليلة ، فالجو حار وحكايات إشعال الحرائق ، الحقيقة التى تجول دائما فى خاطرك ، قد ساءت بدرجة عالية ، إلا أن المنوم سوف يمنحك هدوءا تاما . . . انظر ، لقد أصبح الصباح ومازال البيت على حاله ! - لقد نجحت ثقتك وتصديقك لهذا الإنسان حتى وإن سكن فى «حجرة السقف» . لقد هفت نفسك إلى النبل والعون والكرم ، على سبيل المثال فى الإفطار ، حيث جلستما وجها لوجه وشربتما القهوة وأكل كل منكما بيضة . هل

تخجل الآن من ريبتك فيه ؟ وهل أصبح طرده أمرا سخيفا غير ممكن ؟ ولماذا وجب عليك هذا ؟ . فبعد أسبوع ، استقر هو فى الحجرة عندك وتخلصت أنت من خوفك . لكن عندما أحضر معه فى أحد الأيام صديقا له أراد هو الآخر المبيت فى الحجرة فإنك ترددت لكنك لم ترفض . التردد لأنه خرج لتوه من السجن ، والله أعلم بالسبب . ومن البديهى طبعا أنك ما كنت تسمح له بالدخول عندك . كما أنه أكثر وقاحة من صاحبه . والسبب فى ذلك على ما يبدو هو السجن . إلا أن الخوف لم يتملكك عندما أعلن بصراحة أن دخوله السجن كان بسبب قيامه بإشعال الحرائق . لكن هذه الصراحة العارية قد أعطتك الثقة التى تتطلع إليها مستهدفا الهدوء والسلام إلا أنك لم تستطع النوم طوال الليل على الرغم من تثاؤبك ، وكنت تعود لقراءة قصص الأنبياء فى مسرحية « الحواريون » للكاتب النمساوى ماكس مل الذى عرض قوة الإيمان الحقيقى فى عمله الشعرى الجميل الذى تؤدى قراءته إلى ارتياح يغنى تقريبا عن المنوم ، والآن يغلب عليك النعاس . . . انظر ، لقد أصبح الصباح ومازال البيت على حاله ! معارفك يتعجبون ولا يستطيعون فهمك ، ويتساءلون دائما : ماذا يفعل هذان الغريبان عندك ؟ وهما يثيران أعصابك لدرجة تجعلك نادرا ما تخرج من أجل لقاءك المعتاد مع أصدقائك ؛ إن ما يستهدفانه فى الحقيقة هو قلقك . ويمكن أن

يقال إنهما نجحا ؛ وأنت نفسك راقبتهما وتيقنت أنهما جاءا ببرميل صغير إلى حجرتهما ولكن ثقتك فيهما لم تتزعزع على الرغم من أنهما فعلا فعلتهما بمنتهى الوضوح ، وأعلنا ، ردا على سؤالك ، أن سبب إتيانهما بهذا البرميل الصغير هو العطش . وتقول لنفسك إنه فعلا الصيف ولابد أن يكون الجو حارا جدا . إلا أنك اعترضت سبيلهما ذات مرة ، فسقط البرميل من حامله وتسربت إلى أنفك رائحة البنزين ، التى دلل عليها نفس واحد منك فارتعبت وسألت : هل هذا بنزين ؟ وما كان منهما إلا أن واصلا عملهما ولم ينكراه بأى طريقة وأجابا على سؤالك الجاد ، عما إذا كانا يشربان البنزين ، بقصة لا تجعلك قادرا إلا على الضحك حتى لا تقف صامتا كالحمار . وعلى الرغم من كل هذا فمازلت منصتا فى بيتك لدحرجة هذا البرميل الباعث لرائحة البنزين . إنك لم تعد تعلم الحقيقة وعليك أن تفكر ، هل أساءا استغلال ثقتك بهما ؟ لحظات وتكون ولاعتك بين أيديهما والسجائر فى أفواههما ، فهل قررت طردهما ؟ طردهما ، بكل بساطة ، اليوم ! وبحد أقصى غدا ! هذا إن لم يرحلا هما بأنفسهما وببساطة شديدة ، هذا إن لم يكونا مشعلى الحرائق ، سيكون العكس وتكون أنت الظالم الذى جعلهما أشرارا مضادين له ، وهنا يظهر ما لا تريده على أية حال ، ألا وهو الشعور بالذنب . ثم يكون التنبؤ الصعب بالمستقبل ؛ فمن

لا يستطيع رؤية الحقيقة بدون استدلال ، ومن يعى أساسا كل مايعرفه ، يجوز أن يتنبأ ببعض مما سوف يقع لكنه لن يهدأ ولو للحظة واحدة ، لذا فعلية السكوت على تلك الحقيقة . إذن ما الهدف الحقيقى من نقلهما البنزين لحجرتهما ؟ قال أولهما ضاحكا إنهما يريدان إضاءة المدينة بأكملها .ويجوز أن تكون هذه سخرية أو مبالغة . وإن كان قولهما حقا ، فهذه الفكرة كلما كررتها أكتمل إقناعك لنفسك بها ، أى أنه يهدئك . كذلك الآخر قال : نحن ننتظر الرياح الملائمة ! ومن الصبيانية أن ترعبك هذه الأقوال ، وسخافة بالغة أن تفكر لحظة فى الشرطة . لذلك وضعت أذنك فوق الجدران حتى لا تجعل نفسك أضحوكة إذا استعلمت عن الضوضاء ، فهذا أمر ليس باليسير . فهل الهدوء تام الآن أم سمعت شخير أحدهما ! ولماذا لم تفكر فى الشرطة ؟ هل لأنك تستحق العقاب على إيوائك مثل هؤلاء فى بيتك عدة أسابيع دون أن تسجلهما لدى الشرطة ؟ لكن بالطبع وقبل أى شىء ، هى الأسباب الإنسانية التى منعتك من اتخاذ هذه الخطوات . لماذا لم تقل لهما ببساطة وبصراحة إنك لا تريد بنزينًا فى بيتك ؟ دائما الصراحة فى المقام الأول إلا أن سرعان ما وجب عليك الضحك فجأة حين خطر ببالك أنهما لن يحرقا بيتك ماداما فيه ! من أجل التصنت ، دائما ما تصعد بالبيجامة أولا فوق الكرسى ثم على الكومودينو وأخيرا على

الدولاب ، إنه الشخير . وبعد نصف ساعة تهدأ . . . انظر لقد أصبح الصباح ومازال البيت على حاله! - أشرقت الشمس وتغير اتجاه الرياح وأصبحت سماء المدينة صافية ، أما حال هذين الشريرين فكما هو ولم يعد طردهما يسيرا ، بل ولا ينصح به ، لأنك ما دمت صديقا لهما ،فسوف يقومان على أقل تقدير بالإبقاء عليك ، فالصداقة فى المقام الأول ! وإذا كنت ستخرج هذا الصباح وتدعوهما على الإفطار ، فأنت لست بماكر أو مضطر ، بل هى الدوافع العاطفية التى تأتى المرء فجأة وعليها - كما قلت - لا يجبر المرء . لقد أصبح السلم المتحرك مؤديا دائما لحجرتهما ذات الباب المفتوح الذى أصبح الدق عليه غير مسموح به ، فأنت لم تدخل تلك الحجرة ولم تشاهدها منذ فترة ، وقد أصبحت مملوءة بالبراميل الصغيرة . والآن يقف فيها هذا الصديق الذى خرج لتوه من السجن ، على شباك سقفها المائل ويخرج إصبعه المبلول ليحدد اتجاه الرياح ؛ أما الآخر فقد خرج للأسف ، لكنه سوف يعود . أى أنهما لن يفطرا الآن . وقال الحاضر منهما ، كعادته ، إن الآخر سوف يعود أثناء النهار ومعه الحطب الضرورى . الحطب ؟ هكذا لا يبقى سوى أن يتحدث عن فتيل الإشعال . لحظة واحدة وتعود للحيرة والضلال ، وهذا ما تود كتمانه . أنت تعلم أنه ليس هناك من هو على هذه الدرجة من الوقاحة مثل محدثك الذى يظهر أمامك فى

هذه الصورة الآن . فقط لأنه يعلم أن هذا ما يرعبك . لكنك تقرر دائما ألا تخاف وأن تحتفظ بهدوئك وأمنك . ليكن ! تصرف وكأنك لم تسمع شيئا ! وأيضا الإفطار ، فليكن فيما بعد . الآن لإيماءاتك الحنون قيمتها وكذلك قولك : ربما على العشاء ؟ ويرد غريب الأطوار : بكل سرور! حيث يكون لديهما وقت وبعد أن ينتهيا من العمل الذى يعتمد على الرياح . إنه حقا غريب الأطوار . وتتطلع أنت لمعرفة ما إذا كانا سيأتيان على العشاء وهل مازالا يبقيان على صداقتك . وتقول الآن أفضل من التأخير . لأنك تتحاشى العشاء غير المعتاد ؛ فدائما ما تحضر النبيذ من البدروم لتبريده وتجهيزه لكل الظروف . فالجلوس فى التراس غير ممكن عند عودتهما فى غضون التاسعة مساء؛ حيث تشتد الرياح . ثم تسأل العائد منهما إذا كان قد وجد الحطب ، وذلك حتى تضيف هذه الملحوظة الخاصة لحواركما . فقال : حطب ؟ ونظر لصاحبه وكأنه نائبه ، ثم يجيبك الله أعلم ! فتضحك ويتبعاك هما أيضا فى الضحك . حطب ! لا ، لم يجد حطبا بل وجد خرقا فى أحد الجراجات ، ولا يمكنك الشك فى أنه قد سرقها ، لكن دائما لهما رؤيتهما الخاصة فيما يتعلق بالحق والباطل . وبعد زجاجة النبيذ الأولى ، التى أصبت حين جعلتها باردة ، رويت أنك قد ارتكبت إثما ، ولأنهما ظلا صامتين واصلت روايتك وتقديرا لصداقتهما ، فتحت زجاجة النبيذ

الثانية . الآن شعر كلاهما وكأنه فى بيته ، لكن أكثرهما حماقة أدار الراديو ليسمع النشرة الجوية . ثم طلبا سويا شيئا واحدا فقط : الكبريت . هنا ارتعشت من جديد وتيقنت أن الصداقة لا تقوم على الشك ، لماذا الكبريت ؟ إلا أنك نجحت أن تتحاشى الارتعاش وقدمت لهما السجائر ، ولم يحضرك أى شىء ، حتى جاءتك فكرة ليست بالسيئة ، فقدمت لهما النار من ولاعتك ثم أرجعتها فى جيبك . واستمر الحديث ، أى أنهما استمعا لك ونظرا إليك وشربا النبيذ . إلا أن اعترافك الحقيقى بما ارتكبت من آثام لم يعد يؤثر عليهما حيث بلغ شرودهما أقصاه ورفضا زجاجة النبيذ الثالثة التى وضعتها بين ركبتيك ووجب عليك شربها بمفردك لأنكَ فتحتها بالفعل . وعند الوداع ؛ حيث أعلنت أن أصلك الحقيقى هو أن يقترب البشر من بعضهم ويتعاونوا ، طلبا مرة أخرى الكبريت . فأصابتك الرعشة وقلت لنفسك ، وقد أصبت ، إنه إشعال الحريق ، ثم أعطيتهما علبه بها عيدان كبريت صغيرة صفراء ، وفى صباح يوم آخر ، انظر ! هل تفحمت ؟ وهل لا تستطيع أن تتعجب ولو لمرة واحدة على هذه الحكاية ؟ . . . .

* * *

(١٢)
النفق

(فريدريش دورينمات)

فى الرابعة والعشرين ، وسمين ، وحتى يلهى العيون عن فظائع لحمه وشحمه سدّ فمه بسيجارة (أرموند برازيل ١٠) وغطّى عينيه بنظارة شمس وأغلق أذنيه بقطعتى قطن . هذا الشاب ذو التعلق الشديد بوالديه والمنشغل بدراسة غامضة فى إحدى الجامعات ، ركب بعد ظهيرة الأحد قطاره المعتاد ، الذى يقوم فى الثامنة إلا عشر دقائق ويصل بعد التاسعة بسبع وعشرين دقيقة ، ليس عليه فيما عدا ذلك من أيام الأسبوع إلا حضور المحاضرات ، التى قرر أن يزوغ منها ، ولأنه يغادر بلدته سطعت الشمس فى سماء بلا غيوم .إنه الصيف ذو الطقس الجميل ، الذى ينطلق فيه القطار بين جبال الألب وجبال يودا ، ويمر على قرى ومدن صغيرة ونهر بطوله ثم يغوص عشرين دقيقة فى ظلمة نفق صغير ، مباشرة بعد بورجدورف . فى هذا القطار المكتظ بالمسافرين ركب ذو الأربعة والعشرين عاما فى العربة الأولى ثم اتجه للعربة الأخيرة يتصبب عرقا ومعطيا انطباعا بالتبلد . الركاب متراصون ، زحام شديد ، كثيرون يجلسون

فوق حقائبهم ، مقصورات الدرجة الثانية ممتلئة عن آخرها ، فقط في الدرجة الأولى مازالت بعض الأماكن فارغة ، الشاب يجاهد بين كم مضطرب من العائلات والجنود المستجدين والطلبة وثنائيات الأحبة ، يترنح من هزات القطار ، يصطدم بهذا ثم ذاك ؛ ببطون وصدور ، حتى وجد كنبة فارغة في العربة الأخيرة من الدرجة الثالثة ، التى نادرا ما تحوى عرباتها مقصورات . أمامه فى المقصورة المغلقة رجل يفوقه في السمنة يلعب الشطرنج مع نفسه ، وفى ركن الكنبة نفسها ناحية الممر تجلس فتاة حمراء الشعر تقرأ رواية . جلس بجوار النافذة ، وما جاء النفق الذى يطيل علية الوقت ، حتى أشعل أورموند برازيل ١٠ ، منذ عام وهو يمر ، تقريبا كل سبت وأحد على المنطقة ، لكنه دائما لا يلتفت بإمعان للنفق ، فى بعض الأحيان أراد أن يتأمله بعناية إلا أنه دائما ما يشغله شيء آخر ، لدرجة أنه لا يلحظ الغوص فى الظلام إلا بعد الخروج من النفق . وإذا ما قرر ذات مرة مراقبته لا يمعن النظر إلا قليلا ، وسرعان ما يسير به القطار ، وسرعان ما ينتهى النفق . وهذا هو الحال حتى الآن ، لم يرفع نظارة الشمس عن عينيه ، ولم يخطر النفق على باله . سطعت الشمس بكل قوتها وكست الطريق بالذهب ؛ الهضاب والغابات وسلسلة جبال يورا وبيوت صغار المدن ، تلألأ كل شيء بدرجة جعلت النفق يفاجئه ويفوق توقعه . صارت

المقصورة حالكة الظلام بعد أن أدى قصر النفق إلى تعطيل الإضاءة . لحظة واحدة وعلى ضوء النهار أن يأتى خافتا عبر النافذة ، ثم ينتشر بسرعة البرق ويبزغ النور الذهبى من جديد ، لكن هذه المرة طال الظلام ، وما أن رفع الشاب نظارته حتى أشعلت الفتاة سيجارة إعلانا لغضبها فور توقف قراءتها للرواية ، واعتقادا منه أنه يرى فى الضوء المنبعث من تأجج عود ثقابها ، نظر فى ميناء ساعة يده المضيئة ؛ إنها السادسة وعشر دقائق . ارتكن إلى الزاوية بين حائط المقصورة والنافذة ، وعلقت بذهنه دراساته المبهمة التى لا يصدقها أحد ، فى هذا المعهد الواجب عليه زيارته غدا . ولن يذهب إليه (إن كل ما يفعله هو مجرد حجة للصواب وليس الصواب ذاته ، مجرد إحساس بالصواب جعله يتسلح ضد الفزع بزيادة سمنته وبوضع سيجارة فى فمه ولفه قطن فى أذنيه) ، ثم عاد للنظر إلى ميناء الساعة ؛ إنها السادسة والربع ، ومازال النفق ، مما أربكه . الآن أضاءت لمبات المقصورة واستطاعت الفتاة قراءة روايتها والرجل السمين عاد يلعب الشطرنج مع نفسه ، أما فى الخارج وراء زجاج النافذة الذى يعكس كل المقصورة ، فمازال النفق . خرج إلى الممر ، حيث يخطو رجل فارع القوام ذهابا وإيابا متلفعا كوفية سوداء ، أثارت تعجبه فى هذا الطقس ، فنظر إلى الجانب الآخر من المقصورة ، حيث اكتظ المكان بقارئى الجرائد . عاد إلى زاويته

وجلس ، لابد وأن ينتهى هذا النفق الآن فى أى لحظة ، فى أى ثانية ؛ وها هى ساعة يده تكاد تشير إلى السادسة وعشرين دقيقة ؛ وقد تملكه الغضب لأنه لم يلحظ هذا النفق من قبل إلا قليلا ، لقد استغرق ربع ساعة ، ويجب ، إن صح قياس السرعة التى يمشى بها القطار ، أن يكون نفقا مهما ، وواحدا من أطول الأنفاق في سويسرا . على ما يبدو أنه قد أخطأ فى ركوب القطار ، فقد تذكر الآن أن قطاره يقطع المسافة من بلدته فى عشرين دقيقة ولا يمر على نفق بهذا الطول وهذه الأهمية . لذلك سأل لاعب الشطرنج السمين إذا ما كان القطار متجها إلى زيورخ ، فرد بالإيجاب . قال الشاب إنه لا يعلم مطلقا أن فى هذه المنطقة نفقا بهذا الطول ، فأجابه لاعب الشطرنج ، ببعض من الغضب لأنه قد قطع تفكيره العميق للمرة الثانية ، إن فى سويسرا أنفاقا كثيرة ، فوق المعتاد ، لكنه يسافر عبر هذه البلاد للمرة الأولى ، وأشار إلى ما لفت نظره فى إحدى الإحصاءات عن أن سويسرا أكثر البلاد أنفاقا . والآن عليه أن يعتذر عن مواصلة الحديث لأنه ، بحق ، مشغول للغاية بمشكلة مهمة تخص خطة دفاع نمسوفيتش فى الشطرنج ، ولا يجوز مقاطعته مرة أخرى . هكذا أدرك الشاب أن لاعب الشطرنج أفاده بأدب وإيضاح أنه لا سبيل للحصول منه على إجابة . وصل الكمسارى وسعد الشاب ، لكنه سرعان ما أعتقد أن هذا الكمسارى الغضبى

النحيف ذا الوجه الشاحب ، سيكون حاله معه كحاله مع الفتاة التى أخذ منها التذكرة وتأملها ثم أفادها أنه قد كان عليها أن تغير القطار فى محطة أولتن . هنا ازداد اقتناع الشاب أنه أخطأ فى ركوب القطار . قال ، وأورموند البرازيل ١٠ فى فمه ، إن عليه أن يدفع الفرق ومد يده بالتذكرة إلى الكمسارى ، الذى أجابه بعد أن فحصها ، أنه فى القطار الصحيح ، فقال الشاب بغضب وعنف مستهدفا إيضاح هذا الوضع الملتبس : كان المفروض أن نكون قد مررنا بهرتسو جنبوخزيه واقتربنا من لابختتال ، لكننا مازلنا فى النفق ! قال الكمسارى : بالتأكيد ، يا سيدى ، والساعة الآن السادسة وعشرين دقيقة . لكن الشاب أصر على أن القطار فى النفق منذ عشرين دقيقة ، فنظر إليه الكمسارى بذهول ، فقال الشاب : إنه قطار زيورخ ، ونظر فى الشباك ثم قال : ها هى الساعة الآن السادسة وعشرين دقيقة ، والمفروض أن نصل أولتن بعد قليل ، أى فى السادسة وسبع وثلاثين دقيقة . سيكون الطقس قد ساء والليل قد جاء وربما هبت عاصفة ، ربما . هنا غضب رجل الشطرنج المهتم بخطة دفاع نمسوفيتش ، بعد أن ظل رافعا يده بتذكرته ولم ينتبه إليه الكمسارى ، وقال : غير معقول ! ما أسخف هذا ! نسير فى النفق ونرى الصخر والجرانيت . فى سويسرا معظم أنفاق العالم . لقد قرأت هذا فى إحدى الإحصاءات . .وأخيرا أخذ الكمسارى تذكرة لاعب

الشطرنج وأكد من جديد ، وكأنه يهدئهم ، أن القطار في طريقه إلى زيورخ ، فسأله البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما عن إدراجي القطار ، فأجابه الكمسارى أن الإدراجي في مقدمة القطار ، وأكد من جديد أن القطار متجه إلى زيورخ وأن الساعة لعلّها الآن السادسة وخمس وعشرين دقيقة وسوف يصل القطار إلى أولتن ، طبقا لخطة التوقيت الصيفى ، بعد حوالى عشرين دقيقة ، ثم أعلن أنه يعمل على هذا القطار ثلاث مرّات أسبوعيا . لكن الشاب اتخذ طريقه إلى الإدراجي ، إلا أن مسيرته قد ازدادت صعوبة في القطار المزدحم عما كانت عليه من قبل ، إنه الآن في الاتجاه المضاد وسرعة القطار قد ازدادت ، كذلك ضوضاء مروره صارت مفزعة مما جعله يعيد إلى أذنيه ما سقط منها من قطن عند دخوله . كل من مر بهم مازالوا على حالهم ، والقطار لا يختلف في شيء عن القطارات الأخرى التى طالما سافر بها بعد ظهيرة الأحد ، ولم يلحظ أى قلق من أحد الراكبين . في إحدى عربات الدرجة الثانية ، إذا برجل إنجليزى أمام شباك الممر يدخن غليونه وينقّر به على الزجاج ، وقال : « سيمبلون » كذلك في غرفة الأكل كان كل شيء كالمعتاد ، على الرغم من امتلائها عن آخرها ، ربما لفت الممر نظر أحد المسافرين أو أحد الجرسونات أثناء تقديم شرائح اللّحم المحمرة والأرز . وجد الشاب إدراجي القطار ذا الحقيبة الحمراء على

باب عربة الأكل ، هذا الإدراجى الضخم الهادئ ذو الشارب الأسود المستمتع بعناية فائقة وذو نظارة دون إطار ، سأله : ماذا تريد ؟ قال الشاب : نحن فى نفق منذ خمس وعشرين دقيقة . لم ينظر الإدراجى إلى الشباك ، كما توقع ذو الأربعة والعشرين عاما ، بل توجه إلى الجرسون وقال : أعطنى علبة أورمونـد ١٠ ، إننى أدخن نفس سجائر السيد إلا أن الجرسون لم يلب طلبه لأن السجائر قد نفدت . هذا مما أسعد الشاب وأتاح له فرصة التودد ، فقدّم للإدراجى علبة برازيل . قال : أشكرك ، لقد أسديت لى معروفا ، فلن يكون عندى وقت لشرائها فى أولتن . والتدخين له أهميته . اتبعنى لو تكرمت ! . ثم توجه ذو الأربعة والعشرين عاما إلى عربة العفش والطرود المجاورة لعربة الأكل ، وقال عند دخولهما : نحن الآن فى مقدمة القطار ، بعد الجرار مباشرة ضوء أصفر ضعيف يضفى غموضا على جزء كبير من عربة العفش ذات الأبواب الجانبية المغلقة ، وتظهر ظلمة النفق من شباك صغير ذى قضبان حديدية ، الحقائب فى كل مكان ، ملصق على معظمها بطاقات الفنادق ، هنا أيضا بعض الدراجات وعربات الأطفال . علق الإدارجى حقيبته على الشماعة ، وأمسك كراسته ، بعد أن أخذها من الحقيبة ، وبدأ يملأ الجداول ، ثم طرح عليه السؤال نفسه من جديد دون أن ينظر إليه : ماذا تريد؟ أجابه ذو الأربعة والعشرين عاما بحزم :

من بورجدورف ونحن فى النفق ، وليس فى المنطقة هنا نفق مثله ، إننى أسافر كل أسبوع ذهابا وأيابا ، وأعرف المنطقة جيدا . واصل الإدارجى الكتابة ، ولكنه اقترب من الشاب حتى كادا أن يتماسا وقال أخيرا : يا سيدى ، ما لدى إلا القليل لأقوله لك . لا أعرف كيف دخلنا هذا النفق ، ولا تعليل عندى لذلك . أرجوك أن تقدر هذا . نحن نسير الآن على القضبان ولابد أن تقودنا إلى مكان ما . لا شىء يثبت أن هناك شيئا ليس على ما يرام فى النفق ، سوى أنه لم ينته . هكذا تحدث الإدارجى بوقار وثقة وهدوء ، بينما أورموند برازيل بين شفتيه ولم يدخنها ، كانت كلماته واضحة على الرغم من أن ضجة مسيرة القطار فى عربة العفش أقوى من نظيرتها فى عربة الأكل .
قال الشاب بصبر نافذ : إذا فأنا أرجوك أن توقف القطار ، إننى لم أفهم أى كلمة مما قلت . وإن كان وجود هذا النفق ليس على ما يرام ، ولا تستطيع تعليله ، فعليك أن توقف القطار . أجابه الإدارجى ببطء: نوقف القطار؟ بالتأكيد قد جال هذا الأمر بخاطره ، فقد أغلق الكراسة وأعادها لحقيبته المتأرجحة ، ثم أشعل الأورموند بعناية . سأله الشاب إذا ما كان يجوز له أن يشد فرامل الطوارئ، وأدار رأسه تجاه يد الفرامل ، لكنه اندفع فى اللحظة نفسها للأمام واصطدم بالحائط ، واندفعت نحوه عربة أطفال وتزحلقت الحقائب واندفع الإدارجى هو الآخر رافعا يديه

فى عربة العفش ، قائلا : إننا ننحدر لأسفل ، ثم استند على الحائط العربة الأمامى بجوار ذى الأربعة والعشرين عاما ، لم يصطدم القطار المسرع بالصخور ، بل مجرد احتكاك وتهشم أطراف العربة فقط ، ثم استقر السير فى النفق ، انفتحت الأبواب فى الجانب الآخر من العربة ، وظهر الراكبون يشربون نخبًا فى ضوء عربة الأكل الساطع ، ثم عادت الأبواب وانغلقت . فجأة حدق الإدارجى فى وجه ذى الأربعة والعشرين عاما تحديقا غريبا وقال : هيا إلى الجرار ! ثم أغلق الباب المستندين على الحائط المجاور له ، فإذا بتيار هواء ساخن يندفع نحوهما ، وتهب عليهما عاصفة عاتية ، وتملأ الضوضاء عربة العفش . قال الإدارجى بصوت مرتفع فى أذن الشاب الذى لم يسمعه بوضوح : لا بد أن نعود للجرار . ثم اتجه يمينا واختفى وراء الباب المفتوح المؤدى لممر تتلاطم فيه ألواح زجاج نوافذ الجرار البراقة . قرر ذو الأربعة والعشرين عاما أن يتبعه على الرغم من أنه لم يدرك الغرض من هذا الصعود . دخل الممر وأمسك بالدرابزين على جانبيه ، إلا أن فزعه لم يأت به تيار الهواء الفظيع فقط بل أيضا الاقتراب الشديد للجرار من حوائط النفق ، التى لم يلتفت إليها نتيجة اضطراره التركيز على الجرار ، حيث هرس العجلات وصفير الرياح ، مما جعله يشعر وكأنه ينطلق بسرعة الشهب فى عالم الحجر . ممر ضيق بطول الجرار وفوقه قضيب

وكأنه درابزين دائرة على الارتفاع نفسه . لابد من أن يكون هذا هو الطريق، من هنا ، وأشار إلى مسافة تكاد تكون مترا ، نجح وأمسك بالعمود ، مشى الممر بطوله ملتصقا بالجرار ؛ أول الطريق كان مرعبا عندما سار بطول الجرار ثم واجه العاصفة العاتية واندفاعًا سريعًا لحوائط الصخر تحت الضوء .

ما أنقذه سوىٍ أن الإدارجى سحبه داخل الجرار عبر الباب الصغير . دخل الشاب منهكا حجرة الماكينات التى هدأت فجأة ، واندفع البخار من حوائط الجرار الفولاذية العملاقة ، وما أن أغلق الإدارجى الباب حتى ذهبت الضجة وعاد الهدوء . قال الإدارجى : لقد فقدنا أورموند برازيل، لم يكن من الذكاء أن نشعل إحداها قبل الصعود إلى هنا ، كما أن نوعك الطويل سرعان ما انكسر فى العلبة . سعد الشاب لما عايشه ؛ قرب شديد من حوائط الصخر ، نصف ساعة لن ينساها ؛ بل سيذكرها دائما ليل نهار (دائما لأنه لا يعيش إلا مثل هذه اللحظات ؛ لحظة اقتحام ،لحظة ترك مفاجئ لسطح الأرض وتوغل مغامر فى باطنها) . أخرج إحدى العلب البنية من جيب الجاكتة وقدم للإدارجى سيجارة من جديد ، ووضع أخرى فى فمه وأشعلها باحتراس من النار التى قدمها له الإدارجى الذى قال : كم أفضل أورموند ، لابد من أن أسحب نفسا وإلا ستنطفئ : كلمات أفقدت الشاب الثقة لأنه يشعر بأن الإدارجى

مازال لا يعبأ بهذا النفق الذى يواصل القطار السير فيه (دائما هناك إمكانية أن ينتهى هذا النفق ، ينتهى فجأة كالأحلام) . نظر فى ساعته ذات الميناء البّراق ، وقال : الثامنة وأربعين دقيقة ، كان علينا أن نكون فى أولتن ، وعاد بتفكيره إلى أشعة غروب الشمس على التلال والجبال التى مر عليها منذ قليل . وقفا يدخنان وقد استندا على حائط حجرة القيادة ، سحب الإدارجى نفسا من برازيل وقال : اسمى كلر ، غير أن الشاب لم يستسلم للخروج عن الموضوع وقال : لم يكن صعود الجرار أمرا آمنا ، على الأقل بالنسبة لى ، لأنى لم أجربه من قبل ، وأود أن أعرف لماذا أخذتنى معك ؟ قال كلر إنه لا يعرف وأراد أن يعطى نفسه وقتا للتفكير فى هذا الأمر . قال ذو الأربعة والعشرين عاما مكررا : « للتفكير » قال الإدارجى – نعم ، وعاد للتدخين . عاد القطار للاندفاع للأمام ، بينما الشاب يجول فى الممر اقترح كلر مترددا ومتكئا على الحائط : يمكننا الذهاب لمركز القيادة ، فتح الشاب الباب ووقف أمامه ، ثم أتى إليه الإدارجى ، فقال : لا أحد ، لا أحد بمركز القيادة ، دخلا المركز متأرجحين بسبب سرعة الجرار الشديدة التى يسحب بها القطار فى النفق . قال الإدارجى : من فضلك ، ثم ضغط على بعض مفاتيح الجهاز وجذب فرامل الطوارئ إلا أن الماكينة لم تطعه . فعل كلاهما كل ما فى استطاعتهما لإيقافها ، وما لاحظا اختلاف نوعية

جدران النفق حتى أكد كلر أن القطار يواصل غوصه ، فأشار ذو الأربعة والعشرين عاما إلى مقياس السرعة وقال : مائة وخمسون ، بلغت سرعة القطار مائة وخمسين ؟ قال الإدارجي : ربّي ، لم يسر القطار بهذه السرعة من قبل، الحد الأقصى مائة وخمسة ، قال الشاب : إن السرعة تزيد ، وصل المؤشر إلى مائة وثمانية وخمسين ، نحن ننهار . اتجه نحو النافذة ولم يستطع أن يتحكم فى حركته فالتصق وجهه بالحائط الزجاجى ، وأوصلته السرعة لدرجة من الرعب حتى صاح : أين سائق الجرار؟ وبحلق فى الكتل الصخرية قائلا : كنا جالسين فى مقصوراتنا ولا نعلم أن كل شىء قد ضاع . لم يتغير شىء ، كما بدأ لنا ، إلا أن البئر أخذنا إلى أعماقه ، وها نحن تبتلعنا الأرض مثل قارون . صاح الإدارجى معلنا لزوم عودته قائلا : سيظهر الرعب فى العربات ويتدهور كل شىء . قال ذو الأربعة والعشرين عاما : بالتأكيد ، ودارت بذاكرته تلك الفتاة بروايتها وشعرها الأحمر ، ثم قدم للإدارجى ما بقى معه من علب أورموند برازيل ١٠ وقال : خذ ، سوف تفقد برازيلك فى زحف العودة . فتساءل الإدارجى إن كان حقا سيعود ، وبدأ تقدمه للأمام بصعوبة ليمسك نفير فونوغراف الممر . نظر الشاب إلى الأجهزة العاطلة بروافعها وأزرارها ، التى وقع عليها ضوء الكابينة الساطع وقال : لا أعتقد أنك ستصل إلى العربات ،

صاح الإدارجى : إنه واجبى ، فأجاب ذو الأربعة والعشرين عاما دون أن يتابع بنظره فعلة الإدراجى البلهاء : بالتأكيد ، قال الإدراجى : علىّ أن أحاول على الأقل ، وتقدم فى الممر مسندا كوعيه وساقيه على الحوائط ، فإذا بالقطار يندفع للغوص فى باطن الأرض ، ويدفع كل ما بداخله ، وإذا بالإدراجى معلق فى زاوية فوق مرقد ذى الأربعة والعشرين عاما على حافة الماكينة أمام شباك القيادة الفضى ، حيث انحنت رأسه وضعفت قوته . اتقى الإدراجى لوحه التوصيل الكهربائى ونزل مرعوبا بجوار الشاب ، وشد قبضته على مناكبه وصاح عبر هدير حوائط النفق المتدفقة فى أذن ذى الأربعة والعشرين عاما ، الراقد بجسده السمين ، الذى لم يعد له فائدة ، دون حركة فوق الزجاج الذى عزله عن الحفرة وبحلقت فيها عيناه المفتوحتان وقال : ماذا عسانا أن نفعل ، ماذا عسانا أن نفعل ؟ تقدم الآخر باندفاع ملقيا على وجهه سمات المرح الشيطانى ، متجنبا شظايا الزجاج المنطلقة من لوحة التوصيل الكهربائى ، بينما ظهرت أول فتحة فى الزجاج ، ودفع تيار هواء مفاجئ قطعتين قطن إلى أعلى ، حيث مسقط النور السماوى ، وقال : لا سبيل . ربنا ألقى بنا وها نحن نلجأ إليه .

* * *

(١٣)
العسر

(جونتر جراس)

إريش يراقبنى ، وأنا أضعه نصب عينى . كل منا يحمل سلاحه وكلانا قرر ضرب الآخر بالنار . أمامنا مسدسان محشوان بالذخيرة بعد أن أجرينا عليهما تجارب طويلة ونظفناهما بعناية شديدة تيسر إطلاق النار منهما ، بالطبع لم يكن من المحتمل أبدا أن تحضرنى فكرة الشك فى قدرة سلاح إريش كما كنت على يقين من أن إريش لم يشك ولو للحظة فى جدية سلاحى . فقد قمنا منذ نصف ساعة بإعادة فك المسدسين وتنظيفهما وتركيبهما وحشوهما بالذخيرة استعدادا لضرب النار . إننا لسنا غارقين فى الأحلام . فالمكان المحدد لعمليتنا الأكيدة هو بيت إريش الذى يتكون من طابق واحد وبينه وبين أقرب محطة قطار مسافة تتطلب ساعة سيرا على الأقدام . أى أنه منعزل ، مما جعلنا نعتقد أن الأذن غير مرغوب فيها - بكل ما يحمل ذلك من معنى - سوف تكون بعيدة عن الطلقات النارية . ثم أخلينا حجرة الجلوس وأزلنا ما على حوائطها من صور تعرض معظمها عمليات الصيد وذلك حتى لا تصب الطلقات الكراسى أو الكومودينو أو تلك

الصور ذات البراويز الضخمة ، كما أخذنا الحذر حتى لا نصيب المرآة أو قطع الخزف الصينى .

هكذا لن نترك شيئا أمام الطلقات النارية سوى أنفسنا ، كلانا أعسر وأصبحنا أعضاء فى الجمعية التى أسسها كما تعلمون عسر هذه المدينة ، شأنهم فى ذلك شأن أصحاب أى عاهة . كنا نتقابل بانتظام ونحاول أن نأتلف مع طبيعتنا للأمر ، بيد أن أحد المدرسين الأمناء ذوى النية الحسنة قام بالتدريس لنا . لكنه ذهب ذات مرة ولم يعد إلينا وذلك لأن السادة رؤساء الإدارة قد انتقدوا طريقة تدريسه وانتهوا إلى أن أعضاء الجمعية يجب أن يعلموا أنفسهم بأنفسهم ، هكذا ترابطنا وسعينا للقيام بألعاب جماعية ؛ وهى عبارة عن تجارب للمهارات ، مثل إدخال الخيط فى الإبرة وصب الماء وفتح وإغلاق الأزرار باليد اليمنى . وهكذا صار شعارنا : لن نهدأ حتى تصبح اليمين كاليسار .

كم هو جميل وقوى هذا الشعار . بيد أنه مجرد سخف مبتذل لن يتحقق أبدا . وكثيرا ما طالب المتطرفون فى جمعيتنا بشطب هذا الشعار وإبداله بآخر يقول ، نحن نريد أن نفحر بيدنا اليسرى وألا نخجل من طبيعتنا .

حتى هذا الشعار لا يصح ، بيد أن لهجته المنبرية جعلتنا نختار كلماته كترفع راسخ للمشاعر . أما أنا وإريش ، ونحن من أتباع الأفرع المتطرفة . نعلم جيدا أن خجلنا له جذور عميقة

فالعائلة والمدرسة ، وكذلك الخدمة العسكرية فيما بعد ، لم يسهموا فى الإعداد لاتخاذ موقف يعين على احتمال هذا الخروج ، الذى لا يذكر ، عن المألوف إذا ما قارناه بحالات أخرى شاذة .

لقد بدأ الأمر بتصافح الطفل فأقارب وأصدقاء وزملاء الأم والأب لا يمكن تجاهلهم . وكذلك كل من فى آفاق الطفولة داخل الصورة العائلية القاتمة والمرعبة ، حيث يجب مصافحتهم جميعا فيقولون : لا ، ليس بهذه اليد الخطأ يا حبيبى ! هات يدك الصحيحة الصغيرة الجميلة النشيطة ! هات اليمين ! .

سنى ستة عشر عاما ، حيث كانت فتاة لأول مرة بين يدى . فإذا بها تخرج يدى من بلوزتها وتقول وقد خاب ظنها : أنت أعسر واأسفاه!، إن مثل هذه الذكريات مازالت باقية . وعندما أردنا تسجيل هذا القول فى الكتاب الذى دوناه أنا وإريش معا . كان مجرد الإشارة لواحدة من محاولات التمسك بمثالية لا يمكن الوصول إليها .

الآن ضم إريش شفتيه وضيق عينيه ، وأنا حاكيته . فها هى عضلات متحركة فى الوجنات وجبين مشدود ، وأنف قد ضاقت أطرافه ، ويقلد إريش ممثلا معروفا بملامحه المليئة بالمغامرات فى مشاهد كثيرة وربما لى أنا كذلك تشابه كبير مع واحد من أبطال الشاشة الغامضين ، كلانا يجب أن يبدو عبوسا . ويسعده

ألا يتتبعه أحد بعينيه فربما لا يقبل المشاهد . غير المرغوب فيه - أن شابين ذوى طبيعة رومانسية يريدان المبارزة ، يتصارعان على فتاة أو كل منهما أهان الآخر ، إنه شجار متواصل ومبارزة وإراقة للدماء فى كل الأحوال . هكذا يظهر الأعداء انظروا فقط لهذه الشفاه المتلاصقة التى لا لون لها ، وهذا الأنف البعيد عن الأطراف إنهم يمضغون الكراهية هؤلاء المتعطشون للقتل .

مازلنا أصدقاء على الرغم من الاختلاف الشديد بين وظائفنا ، حيث أصبح هو رئيسا لأحد الأقسام فى متجر كبير ، وأنا اخترت العمل المربح وأصبحت ميكانيكيا للصناعات الدقيقة . حتى الآن يمكننا حصر ما بيننا من أشياء مشتركة كثيرة ، ومازالت ضرورية لاستمرار صداقتنا فقد سبقنى إريش فى الانتماء لهذه الجمعية ، وأتذكر جيدا يوم دخلت متافقا وخجولا تلك القهوة الخاصة بجمعية الزاهدين فقابلنى إريش وأرشد ذلك الحائر إلى شماعة الملابس ، ثم تأملنى بذكاء بدون فضول ، ثم قال بنبرات صوته المألوفة : وأنت تريد بالتأكيد الانضمام إلينا ، فلا تخجل مطلقا : إننا هنا لننصف أنفسنا بأنفسنا .

قلت أنفا « الزاهدون » وهذا هو الاسم الذى أطلقناه على أنفسنا رسميا . ويبدو لى أن ذلك إخفاق فهذا الاسم لا يعبر تعبيرا كافيا عن الرابط الفعلى بيننا ، الذى يزيد من قوتنا ، كان من الأفضل ، بكل تأكيد أن نحمل الاسم المختصر « اليساريون »

أو الاسم الرنان « الإخوة اليساريون » التساؤل هو : لماذا وجب علينا الإحجام عن حمل هذا الاسم ؟ والإجابة أنه ليس هناك أقل من هذا صوابا وأكثر من هذا إهانة أن تكون محلا للمقارنة بهؤلاء المرثى لهم الذين حرمتهم الطبيعة من أهم إمكانية تميز الإنسان وهى إشباع الحب . فنحن على العكس من ذلك تماما ، عبارة عن مجموعة تنجح حينا وتخفق حينا ولا يجوز لى أن أقول إن نساءنا يعترفن بما لدى السيدة اليمنى من جمال وجاذبية وسلوك لطيف . وإذا ما تمت المقارنة بعناية تظهر الصورة المعتادة التى جعلت أحد القسيسين يدعو جماعته من فوق منبر الوعظ إلى التخلص قائلا : كونوا وكأنكم جميعا عسرا ! .

هذا هو الاسم الإجبارى للجمعية حتى إن أول رئيس لجمعيتنا وهو موظف وموجه كبير ولكنه للأسف يفكر بطريقة بطريركية فى إدارة المدينة ومكتب السجل العقارى ، كان يجب عليه من حين لآخر تنظيم عملية إنقاص الشعور بالانعزال لدينا باعتبارنا عسرا . حتى لا نفكر أو نشعر أو حتى نتصرف من جانب واحد .

وبالتأكيد كانت هناك أفكار سياسية عندما قدمنا الاقتراحات الفضلى وأطلقنا على أنفسنا هذا الاسم الذى لم يكن من الجائز مطلقا أن نحمله . وبعد ما اتجه أعضاء البرلمان من الوسط إلى اليمين أو إلى اليسار وظهر أن نظام المناصب يخذل الوضع

السياسى لبلادنا ، أصبح من العادة أن ورود كلمة يسار ، فى مقال أو فى خطبة أكثر من مرة هو تأسيس لتطرف خطير . وعندما تأسست رابطة فى مدينتنا بلا أهداف سياسية واستهدفت تبادلا للمساعدة وإقامة حفلات السمر فقط . كانت . إذن تخصنا . إننى انطلقت الآن وبإيجاز من أجل كسر شوكة الريب فى الضلال الشهوانى ووجدت خطيبتى بين فتيات مجموعة الشباب التى أنتمى إليها . وفور حصولنا على سكن أردنا الزواج ، وفى يوم من الأيام عندما زالت السحب القائمة أخذ بلُبى أول لقاء مع الجنس الأنثوى ، وأدين لمونيكا بها الجميل .

لم يكن من الواجب على حبنا حل المشاكل المعروفة للكل والتى عرضتها العديد من الكتب فقط ؛ بل لزم أيضا الارتفاع والسمو بمعاناتنا اليدوية حتى يمكن أن تصير نعمة لكلينا حاولنا ببعض من الارتباك أن نتعامل سويا باليد اليمنى وكان الجدير بالملاحظة أنه على الرغم من أن الجانب الأصم فينا عديم الحس فقد تلامسنا بمهارة ، أى كما خلقنا ربنا ولا أفشى كثيرا من أسرارى إذا أشرت هنا إلى أن يد مونيكا الحبيبة هى التى أعطتنى القوة دائما حتى أثابر وأوفى بالعهد وكان على ، بعد زياراتنا الأولى للسينما سويا ، أن أوكد لها أنى سوف أراعى أنوثتها حتى يمكننى نقل الدبل إلى اليد اليمنى لكنى للأسف كنت مقلدا به لخمة ، بيد أن مكان هذه العلامة الذهبية للزواج أصبح فى هذه

الآونة هو اليد اليسرى فى البلاد الكاثوليكية الجنوبية . ثم انتشر فيما بعد فى كل مكان ؛ تفوقت العاطفة على العقل الجاف . ربما كان التمرد على نوعية الجنس اللطيف وإثبات أن البرهنة على الأنوثة ذات صورة واحدة ، هو هدف شابات جمعيتنا اللاتى قمن فى ليلة عمل نشيطة بتطريز الشعار التالى على رايتنا الخضراء : القلب ينبض فى اليسار .

عادة ما تحدثت أنا ومونيكا عن تلك اللحظة التى سننقل فيها الدبلة من اليد اليسرى لليد اليمنى ووصلنا دائما لنفس النتيجة وهى أننا لن نستطيع أمام هؤلاء الجهلة ذوى النوايا السيئة ، الحصول على الاعتراف بأننا مخطوبان على الرغم من أننا بالفعل منذ فترة طويلة قرينان اقتسما سويا كل صغيرا وكبيرة . لكن موضوع هذه الدبلة غالبا ما يسيل دموع مونيكا . فما أسعدتنا فكرة حفل زواجنا إلا ويقع الضوء الحزين الخافت على ما سنعانيه عند استلام الهدايا وعلى موائد الضيافة وفى غيرها من مواقف .

الآن ظهر إريش بوجهه الطيب المعتاد وأنا كذلك كنت فى هدوء بعد أن أحسست لفترة طويلة وكأنى فى معركة جعلت الأصداغ ترتجف فى وجهى ، لكن ها نحن الآن لا تتقلص عضلات وجوهنا مطلقا . بل تتقابل نظراتنا بهدوء مما يزيد شجاعتنا وتصوب ، كل منا يستهدف يد الآخر . أنا متأكد تماما

أننى لن أخطئ ، وأننى أستطيع الاعتماد كذلك بثقة على إريش . لقد تدربنا وقتا طويلا ، وانتهزنا تقريبا كل دقيقة متاحة لنا فى وادى الحجارة بالضاحية ، وذلك حتى لا نرجع اليوم عن كثير مما قررناه .

سوف تصرخون ، وهذا يتعلق بالسادية ، لا ، بل هذا تشويه لذاتنا . صدقنى ! لقد أحطنا بكل هذه الأفكار ، لكن لا شيء ، فقد تحملنا المسئولية ، وهذه ليست المرة الأولى لنا فى تلك الحجرة الخالية من الأثاث ، فقد تقابلنا فيها أربع مرات مسلحين ، ووقعت منا المسدسات خوفا من تنفيذ مشروعنا هذا . أما اليوم فأمامنا وضوح تام لأول مرة ، حيث أعطتنا حوادث الفترة الأخيرة ، سواء الفردى منها أو الجماعى ، الحق فى أن نقوم مضطرين بالتنفيذ . أمسكنا أخيرا بالسلاح بعد شك طويل فى تلك الجمعية التى لم نستطع للأسف أن نفعل معها شيئا .

إن ضميرنا يتطلب أن نتخلص من التبعية لأعضاء هذه الجمعية ، حيث أصبحت حزينة ، وأيدت طوائف الحكماء المتحمسين ، وحتى المتعصبين ، بعضهم لليمين وبعضهم لليسار . إننى لا أصدق أبدا هذا الهتاف بالشعارات السياسية بين الموائد ، وتلك العناية ، وذلك التقديس الفظيع لليسر لدرجة جعلت إحدى جلسات الإدارة وكأنها حفل ماجن ، حيث

التصريح بالتلذذ بنشوات تلك الطرقات الشديدة على المناضد . وإذا لم ترتفع الأصوات ظهرت المواجهة مع الرذائل التى لا يمكن إنكارها . لقد وجدت للشذوذ ، الذى أجده غير معقول ، أنصارا بين الجنس الواحد منا . وأسوأ ما أقول هو إن ما سبق وأثبتته علاقتى بمونيكا ، التى غالبا ما رافقت صديقتها ؛ تلك المخلوقة المتقلبة والمضطربة ، وصارت كثيرا ما تتخاذل معى وتعرض شجاعتها فى موضوع الدبلة بدرجة جعلتنى أعتقد أنه لم تعد بيننا الثقة نفسها ، وربما تكون مونيكا نفسها سبب زيادة ندرة وجودها بين يدىّ .

الآن نحاول أنا وإريش أن نلتقط أنفاسنا بمقدار واحد ، أنفاسنا التى كلما تواءمت زاد تأكدنا من أن ما نفعله يؤيده شعورنا الطيب . ألا تؤمنون بكلمة الإنجيل التى تدعو إلى كف الأذى ! بل والأكثر من ذلك تلك الرغبة العارمة والواضحة دائما فى معرفة : هل هذا القدر لا يمكن التحكم فيه ؟ أم أننا يمكن أن نتصدى له ، أن نوجه حياتنا إلى الطريق السليم ؟ فلا ممنوعات صبيانية بعد ذلك ، ولا جماعات خاصة ولا مثيلاتها من حيل .

نحن نريد أن نبدأ من جديد إحياء اليمين باختيارنا الحر وبطريقة طبيعية تماما ، وهكذا تأتينا اليد المحظوظة . تواءمت أنفاسنا وأطلقنا النار معا ولم يعط كل منا أية إشارة . لقد أصاب إريش وأنا كذلك لم أخيب أمله . حقق كلانا ، كما كان معدا ،

الهدف ، وهو ألا تبقى المسدسات فى الأيدى وتسقط على الأرض وتصبح كل الطلقات الباقية فيها زائدة . هكذا ضحكنا وبدأنا ، بلا مهارة ، تجربتنا الجديدة لتوجيه اليد اليمنى للقيام وحدها بالدفاع عن النفس .

* * *

(١٤)
السلم المتحرك

جونتر جراس (*)

أوصلت ماريا منذ لحظات للقطار السريع المتجه إلى برمرهافن ، ولم يكن فى المستطاع أن أبقى فى المحطة وأشهد بداية رحلتها . لا ماريا ولا أنا نحب أن نفترق ونصبح دائما ضحايا لقطار ذى ميعاد دقيق .

تحاضنا بهدوء ثم افترقنا وكأننا سنلتقى غدا . الآن أجتاز ساحة المحطة ، فأصطدم بالمارين وأعتذر ، أخيرا آخذ سيجارة دون أن أُخرج العلبة من جيبى ، لكن لابد من أن أشترى كبريتًا . ها أنا أسحب الدخان وأحتاج جريدة حتى أكون آمنا من طول رحلة الأتوبيس .

لابد وأن أنتظر لأن السلم المتحرك يمتص ببطء هؤلاء المارين المرتدين ملابس الخريف . الآن آخذ خطوة وأقف فى الطابور بين معطفين من المشمع مبتلين . كم أحب الوقوف على هذا السلم المتحرك ، وأستسلم للسيجارة وأرتفع مثل دخانها

(*) Gunter Grass : Die Rolltreppe

لأعلى . هذه الميكنة تملئنى بالثقة . أمامى وخلفى ولع شديد بالحديث ، كل السلم يتحدث ، وتتناسق الأفكار : لعل ماريا الآن بالضاحية بعد أن وصل القطار فى ميعاده إلى برمرهافن . لعلها لم تجد مشاكل ، وخاصة أن منطقة شولتا - فوجلزانج ترى أن علينا أن نعتمد تماما على إنجازاتها ؛ فيها يسير كل شىء على ما يرام ، وربما وصلنا بحالتها إلى ما يفوق شبيهتها فى سويسرا ، جاءنى ما يثبت أن فوجلزانج محلا للثقة . كم من أعمال قاموا بها وانتهت دائما بإنجازات . لماذا لاحق ماريا سوء الحظ ، على الرغم من أنها لم تعمل معنا سوى فترة قصيرة ؟

أمامى الآن امرأة تفرك عينيها وتنتحب بكية ، لابد وأنها عايشت قيام قطار ما ، أى قطار ، وكان عليها ، مثلى ، أن ترحل قبل رحيله ، الذى يتجاوز قدرة الإنسان على الاحتمال . ماريا جلست فى قطارها أمام الشباك ، أما أنا فأنظر خلفى ، حيث صفوف من القبعات . على بسطة السلم كذلك عنقود من القبعات . كم يسعدنى أنى لم أعد عرضة لرؤية تفاصيل تعبيرات وجوه البشر ، بصرى كذلك يتحاشى اتجاه الوصول إلى المحطة ، وأدير وجهى ، وهذا ما لابد من أن أفعله . هناك عاليا ، حيث تبتلع السلالم ذات الغلاف البلاستيك السميك بعضها البعض ، وتتراشق القبعات وأقفية مرتديها ، وقف رجلان ، وأعينهما الجادة مسلطة على بلا أدنى شك . لم تأتنى

فكرة الدوران للخلف ، أو اتخاذ الطريق لأعلى السلم أو بين ما تحتى من قبّعات . تأتيك السكينة وشعور آخر غلاّب ، طالما أنت حيّ على السلم ، تظل حيّا طالما أمامك ووراءك أناس يتنفسون ، ولا يستطيع أحد أن يتدافع إليك . انخفضت درجة السلم ورجعت أنا للخلف قليلا حتى لا يندسّ طرف حذائى فى حوافها البلاستيكية الغليظة ، وكدت أن أسعد لمجرد نجاحى فى الخروج من السلم هكذا آمنا .

قال السيدان اسمى ، وأبرزا تحقيق شخصيتيهما وأفضا إلىّ بأن قطار ماريا السريع قد وصل برمرهافن فى ميعاده ، وأن آخرين هناك ينتظران ، وبالطبع ليس من أجل أن يقدما لها الزهور . مما يثير أن سيجارتى انتهت الآن ، وسوف أتبع هذين السيدين

* * *

إضاءات

(أ)
فرانس كافكا

(١٨٨٣ - ١٩٢٤)

عاش فرانس كافكا الألمانى فى مدينة براغ التشيكية ، حياة معتلة لأنه خرج إلى الدنيا ضعيف الجسم ، مريضا ، مضطرب الوجدان ، ثم اصطدم بالدنيا التى لم تفهمه ولم تحن عليه فظن أن الموت هو الغاية وعكف على نفسه يغوص فيها ويستخرج منها خبراته ويصبها فى قالب مظلم مثل عصره كله ، فجاءت أعماله تتصف بالتناقض الشديد ، فهى منطقية ولا منطقية ، وهى مضحكة ومبكية ، وهى خيالية وواقعية فى وقت واحد ولكنها دائما صادقة خالصة . والقصة المنشورة ضمن هذه المختارات مثال لهذا الشكل الجديد الفريد .

وقد تميز كافكا ببلاغته اللغوية الواضحة فى كل أعماله التى نذكر منها رواياته «القضية» (أو المحاكمة) برلين ١٩٢٥ و«القصر» ميونخ ١٩٢٦ و «أمريكا» ميونخ ١٩٢٧ ؛ والكتابات المنشورة فى مخلفاته التى صدرت فى برلين ١٩٣١ .

* * *

(٣)

هوجو فون هوفمنستال

(١٨٧٤- ١٩٢٩)

شهدت ڤيينا عام ١٨٧٤ ميلاد الأديب الكبير هوجوفون هوفمنستال ، الذى بدأ فيها دراساته وتكوينه الفنى . كان والده نمساويا وكانت والدته إيطالية فأثر ذلك على أفقه الفكرى والفنى تأثيرا كبيرا ، فانفتح للخارج بقدر ما انفتح للداخل انفتاحا شمل آداب إيطاليا وأسبانيا وشيئا من آداب الشرق ، كما شمل عصورا مختلفة الاتجاهات وفنونا متنوعة مثل التصوير والموسيقى .

بدأ هوفمنستال الكتابة منذ وقت مبكر فاشترك فى إصدار مجلة « الصباح » ، وقرر أن يعيش للكتابة الأدبية وإن يجتهد حتى يجد طريقه ويكتشف أسلوبه .رفض اتجاهات المذهب الطبيعى دون أن يجد بديلا له سوى محاولات أدبية رقيقة حالمة مترفة فى شكلها ، حائرة فى مضمونها ، حتى إن مسرحياته الأولى لتأتى بعذوف عن الحياة واندفاع إلى الموت . ثم تطور حتى إنه عانى من الدنيا المحيطة به ، وتألم فى داخله لأحزانها ، ووصل إلى الإحساس بها إحساسا صوفيا ، فما هى إلا تجلٍ للذات الربانية .

كانت أعماله المسرحية مختلفة الأنماط ، فمنها الكوميديا المقنعة ، ومنها المسرحيات التى تدور حول موضوعات دينية أو دنيوية عجيبة ، ومنها المسرحيات التى تعيد الحياة للأعمال القديمة ، ولكن بإحساس عصرى .

كما كان هوفمنستال شاعرا صادقا الإحساس، يفكر بقلبه ويسمع حديث كل صامت ، ويفهم إيماء كل أعجم ، فقد أوتى القدرة على الاندماج فى الأشياء ، والحياة فيها قبل أن يتحرك لسانه بالتعبير عنها .

مات هوجوفون هوفمنستال - محاطا بالتقدير فى النمسا وخارجها - عام ١٩٢٩ فى روداون قرب ڤيينا ، بعد أن اطلع العالم على أهم أعماله ؛ مثل مسرحيات : الغبى والموت (١٨٩٩) وموت تسيان (١٩٠١) ، وإلكترا (١٩٠٤) ، وكل إنسان (١٩١١) ، والبرج (١٩٢٧) ، والأوبرا التى وضع ألحانها ريشارد شتراوس « روزنكا فالير » (١٩١٨) .

* * *

(٣)

فولفجانج بورشرت

(١٩١٢- ١٩٤٧)

ولد بورشرت عام ١٩١٢ فى هامبورج ونشأ فى طبقة متوسطة ، وقد تدرب بعد نهاية تعليمه فى المدارس على وظيفة بيع الكتب ، إلا أنه سرعان ما أصبح واحدا من جنود الحرب العالمية وأصيب بجراح عدة مرات مما دفعه لاتخاذ موقف مضاد للفاشية كما ساءت حالته الصحية بعد انتهاء الحرب وانحصر عمله فى الإخراج المسرحى حتى مات فى إحدى المصحات فى بازل وهو لم يبلغ من العمر إلا ستة وعشرين عاما .

تشمل أعمال بورشرت القليل من القصائد والقصص القصيرة الموجزة التى نقدم لإحداها الآن ، وتعكس تلك الأعمال صورة لأيدولوجية الشباب الألمانى فى وقته الذى عانى من الفاشية الهتلرية التى أجبرته على دخول الحرب وقد نجح بورشرت فى عرض تحميلها مسئولية ما كان بعد الحرب من فاقة ويأس واكتئاب عانى منه الكثيرون ، وخاصة فى مسرحيته « على الباب » (١٩٤٧) التى تم عرضها بعد وفاته بيوم واحد فى هامبورج .

(٤)
توماس مان

(١٨٧٥- ١٩٥٥) .

ولد الأديب الألمانى توماس مان لأسرة غنية بمدينة لوبك (Lubck) ، التى غادرها لكى يستقر فى ميونخ عام ١٨٩٣ . وقد صار منذ عام ١٩٠٠ كاتبا حرا ، ثم هاجر إلى سويسرا عام ١٩٣٣ ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية . وبعد انتهاء الحرب العالمية قام ، برحلات مختلفة إلى وطنه ألمانيا ، بيد أنه عاش في سويسرا من عام ١٩٥٢ حتى وفاته .

توماس مان هو أكبر قصاص ألمانى فى القرن العشرين ، استأنف التراث الروائى النفسى الواقعى ، ووسعه بما أضاف إليه من عناصر السخرية والنقد والتهكم توسيعا هائلا . ويتصدر الموضوعات الرئيسية فى أعماله ، وخاصة أعماله المبكرة ، موضوع التناقض بين الفن والبرجوازية ، وصور موضوعه العام وهو تفسير الفن ورهافة الفكر على أنهما من مظاهر المرض والتدهور . ولقد وصل توماس مان ؛ نتيجة لتفاعل فكرى رفيع مع كل تيارات عصره ، ولتأويل واع دقيق للتراث الثقافى الأوروبى ، إلى تجاوز أفكار التدهور ، والأيمان بأفكار إنسانية ، أكيدة وإيجابية .

ابتعد توماس مان فى السنوات الأولى من القرن العشرين عن السياسة ، ولكنه سرعان ما عاد وشن هجوما عنيفا حادا على النازية ، معلنا إيمانه بالديمقراطية .

من أهم مؤلفاته الأدبية رواية « أسرة بودنبروك »(١٩٠١) وقصة « الموت فى فينيا » (١٩١٣) ، ورواية« الجبل السحرى » (١٩٢٤) ، « يوسف وإخوته » (١٩٣٣- ١٩٤٣) ، و« الدكتور فاوستوس » (١٩٤٧) .

من مجموعة قصصه التى صدرت فى فرانكفورت عدة مرات (١٩٦٦، ١٩٦٧، ١٩٦٨) ، نقلنا إلى العربية قصة « الموت » التى صاغها توماس مان فى يوميات ، حيث يظهر فيها الموت ، وهو الشخصية المدبرة للانتقال من حياة لحياة أخرى فى عالم آخر . لكن ماذا لو لم يأت الموت فجأة وعرف المرء موعد قدومه إليه ؟ ماذا لو ترك المرء حبيبه فى هذا العالم ، هل سيعيش دونه ؟ هل سيلقاه هناك فى العالم الآخر؟ تساؤلات أبدية .

* * *

(٥)

برتولد بريخت

(١٨٩٨ - ١٩٥٦)

تلقى بريخت باعتباره ابنا لأب ميسور الحال تعليما جيدا حتى شهادة الثانوية ، ثم سافر إلى ميونخ ليدرس الطب بجامعتها ، بيد أن الحرب العالمية الأولى قامت واستدعى للتجنيد واضطر إلى قطع دراسته التى لم يرجع إليها بعد الحرب بل اتجه إلى الأدب الذى كان يسيطر عليه منذ سنوات عديدة . هكذا بدأ اهتمامه بالمسرح . وكتب مسرحية « بعل » ثم « طبول فى الليل » التى لقيت نجاحا كبيرا على مسرح ميونخ . وفى عام ١٩٢٣ م تزوج من الممثلة ماريانة يوزفينه كوف . وفى عام ١٩٢٤ ترك ميونخ وسافر إلى برلين حيث عمل مع المخرج الشهير ماكس راينهارت .

بدأت اتجاهات بريخت الفكرية تتضح وتظهر فى برلين فى هيئة اعتناق للمبادئ الشيوعية ، وأصبح عمله المسرحى يقوم على الاشتراكية اليسارية من الناحية الفكرية ، أما فنيا ففى شكل نظرية من ابتكاره هى نظرية المسرح الملحمى . وفى عام ١٩٢٧م انفصل بريخت عن زوجته الأولى وتعرف بهيلينه فايجل

زوجته الثانية ورفيقة حياته الفنية والقائمة على تراثه بعد مماته .

وعندما أصبحت نازية هتلر فرضا لا يسمح بغيرها من المذاهب والأفكار هاجر بريخت ، كما فعل كثيرون ، فى عام ١٩٣٣م إلى براغ ومنها إلى سويسرا ثم إلى الدانمارك .

وكان فى المهجر عاكفا على الأدب ، مهتما فى الوقت نفسه بالمشاركة فى حركة مناهضة النازية . وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية انتقل للإقامة فى السويد ، ثم هاجر إلى فنلندا ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

وبعد انتهاء الحرب وهزيمة هتلر عاد بريخت فى نهاية عام ١٩٤٧م إلى أوروبا ؛ إلى سويسرا أولا ثم إلى ألمانيا فى عام ١٩٤٨م وأقام فى برلين . وأسس فيها فرقته « فرقة برلين » التى حصلت فى عام ١٩٥٤م على مسرح خاص بها . وظل بريخت ينتج للمسرح ويعبر عن آرائه الخاصة فى الفن وفى السياسة بشجاعة نادرة حتى آخر العمر .

من أعمال بريخت الكثيرة نذكر مسرحية « طبول فى الليل » (١٩٢٢) ، ومسرحية « بعل » (١٩٢٣) ، ومسرحية « فى أدغال المدن » (١٩٢٤) ، والمسرحية الغنائية « أوبرا القروش الثلاثة » (١٩٢٨) ، ورواية « القروش الثلاثة » (١٩٣٤) ، ومسرحية « محاكمة لوكو للوس » (١٩٤٠) ، ومسرحية « الأم شجاعة أولادها » (١٩٤١) ، ومسرحية « جاليليو جاليلى » (١٩٤٢) ،

ومسرحية « دائرة الطباشير القوقازية » (١٩٤٨) ، ومسرحية « السيد بونتيلا وتابعه مانى » (١٩٤٨) ، وغيرها من المسرحيات المؤلفة والمترجمة . هذا إلى جانب قصص قصيرة وقصائد وأغانى وكتابات فى النقد ونظرية المسرح والفن .

* * *

(٦)

هرمن هسه

(١٩٦٢ - ١٨٧٧)

درس هرمن هسه اللاهوت لفترة قصيرة فى طفولته باعتباره ابن أحد المبشرين ، لكنه سرعان ما فر من معهد اللاهوتية الإنجيلية فى ماولبرون [Maulbronn] وأصبح عام ١٨٩٩ بائعا للكتب فى مدينة بازل على الرغم من فترة قضاها فى دراسة الميكانيكا . هنا بدأ إنتاجه الشعرى الروائى ولاقى عمله « Peter Comingind» (١٩٠٤) نجاحا كبيرا يسّر له مواصلة حياته الأدبية ككاتب حر . ثم قام برحلته إلى الهند عام ١٩١٦ ، وبعدها عاش فى سويسرا بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى وظل بها حتى حصل على الجنسية السويسرية عام ١٩٢٤ .

تأثر إنتاج هسه المبكر بالرومانسية ؛ مثل « دارت الدائرة » (١٩٠٦) ، كما عبّرت قصصه عن فترة تعرضه للمؤثرات النفسية ؛ مثل « ذئب البرارى » (١٩٢٧) . ثم قام فيما بعد بتحليل الثقافة وتصوير موقف الإنسان فيها ومنها ، وقد أضاف إلى تحليله عمقا فلسفيا صوفيا رائعا ، وربط ثقافة الشرق بثقافة الغرب على نحو فريد ؛ وهذا ما نجده على سبيل المثال فى

عمله الضخم «لعبة الكريّات الزجاجية» (١٩٤٣) . وقد نال هسه جائزة نوبل عام ١٩٤٦ تقديرا لهذا الإنتاج الأدبى الرائع .

* * *

(٧)
إريش كستنر

(١٨٩٩ - ١٩٧٤)

من مواليد « درزدن » عام ١٨٩٩ ، بدأ بعد نهاية دراسته للغة الألمانية والتاريخ والفلسفة ، بعمله كرئيس تحرير ثم كمحرر حر فى العديد من الجرائد اليسارية حتى صدر قرار بمنع كتاباته كمؤلف « غير مرغوب فيه » عام ١٩٣٣ ، ثم مكث بعد نهاية الحرب فى ميونخ التى توفى بها .

تتركز أهمية كستنر فى مجال أدب النقد اللاذع حيث انطلقت سخريته المعتمدة على أساس ديمقراطى يسارى من قبل عام ١٩٣٣ حتى بعد عام ١٩٤٥ ضد طرز حياة الشعب القائمة . كما هزأ بالنظم العسكرية الرجعية . وقد كتب كثيرا من أعماله الصائبة التى احتوت عادة على النقد الحاد أو الحسرة المريرة ؛ مثل عمله المسرحى « مدرسة الحكام المستبدين » (١٩٥٦) ، كما أصبح معروفا فى العالم برواياته المرحة للأطفال ؛ التى نذكر منها « رجال البوليس السرى » (١٩٢٨) و « النصل الطائر » (١٩٢٣) .

* * *

(٨)
هينريش بُلْ

(١٩١٧ - ١٩٨٥)

من مواليد مدينة كولونيا على نهر الراين . وعلى الرغم من أن أباه تخصص فى فن النحت ، إلا أنه درس مهنة تجارة الكتب وعمل فى المجال نفسه حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية والتحق بسلاح المشاة الألمانى ، فأصيب فى إحدى المعارك وتعرض للأسر الأمريكى ولم يُفرج عنه إلا بعد انتهاء الحرب . وقتئذ عاد إلى كولونيا ودرس اللغة الألمانية وآدابها وبدا حياته ككاتب حر ابتداء من عام ١٩٤٧ بنشر القصص القصيرة ، كما اشترك فى تأسيس « جماعة ٤٧ الأدبية » التى حصل على جائزتها عام ١٩٥١ . وفى عام ١٩٧٢ نال جائزة نوبل فى الأدب .

احتلت أعمال هينريش بُلْ مكانا بارزا فى أدب ما بعد الحرب أو أدب الحطام ، تلك الأعمال التى تمثلت فى مجموعاته القصصية ؛ مثل « أين كنت يا آدم؟ » (١٩٥١) و« ليس فى عيد الميلاد فقط » (١٩٥٢) و« لم يقل كلمة واحدة » (١٩٥٣) و« بيت بلا أسقف » (١٩٥٤) و« خبز السنوات الماضية » (١٩٥٥) و« هكذا كان الصباح والمساء » (١٩٥٥)

و« ضيوف غير قابلين للكسر » (١٩٥٦) و« يوميات أيرلندية » (١٩٥٧) .

كما تميزت أعماله بما نالته من دراسات عديدة ؛ مثل « بلياردو فى منتصف العاشرة » (١٩٥٩) و« آراء شخصية لأحد المهرجين » (١٩٦٣) .

* * *

(٩)
ماكس فريش

(١٩١١ - ١٩٩١)

اكتشف الكاتبان السويسريان ماكس فريش وفريدريش دورينمات (١٩٢١ - ١٩٩٠) ، فراغا فى مسرح ما بعد الحرب العالمية الثانية ، مما جعلهما أهم كاتبين مسرحيين يكتبان باللغة الألمانية فى فترة تقرب من عشر سنوات .

وهما كاتبان مسرحيان وكذلك روائيان ، أما حياة فريدريش الشخصية فهى نقطة البداية فى إبداعه الأول ، لكن موضوع رواياته ومسرحياته وخطاباته تثير المناقشات العامة بشكل أكبر بكثير من دورينمات الذى يبحث بوجه خاص فى مسرحياته عن نماذج جديدة لها مظهر كوميدى . فالمسرح بالنسبة لدورينمات ببساطة هو البحث عن صورة للمجتمع . وهو يثير جمهوره بفظاعة منظره المسرحى ، بينما تكمل الإثارة عند فريش فى المواجهة المستمرة بين ما هو عام وما هو خاص .

حقق فريش نجاحا أثناء الحرب العالمية الثانية بمسرحية « كروز » (١٩٤٤) ، ومسرحية « الآن عادوا للغناء مرة أخرى » (١٩٤٥) ، ثم أخذ يعالج الشكل الأدبى الذى يمثل تفكير المرء

ودوره فى المجتمع فى شكله المباشر جدا ، أى مذكراته « اليوميات ١٩٤٦ - ١٩٤٩» التى يمكن أن نجد فيها معظم أعماله فى مهدها المتمثل فى الاسكتشات والخطط والقصص . وقد جاء النجاح لفريش مع رواية « شتيلَّر » (١٩٥٤) التى يستخدم فيها الراوى ضمير المتكلم « أنا » ويذيب شخصيته فى عدد كبير من الصور والأفكار والأدوار حتى أصبح بعد ذلك استخدام الراوى للأنا بالأساليب الأدبية المختلفة من خصائص رواياته ؛ مثل « هوموفابر » (الإنسان العامل) (١٩٥٧) و« فليكن اسمى جانتنباين » (١٩٦٤) . ويظهر تأثير الأديب الألمانى برتولد بريخت على مسرحيات فريش من ناحية الشكل ؛ حيث يشتد التفكير الذاتى الذى يتحول إلى صراع درامى فى الأدوار ونماذج السلوك . كما اتجه فريش إلى الرمز فى قصته المدونة فى يومياته « تمثيلية ساخرة » ثم فى مسرحيته « بيدرمان » و« مشعلو الحرائق » (١٩٥٨) حتى يستطيع التوفيق بين ميله للجزئيات وضروريات المسرح . وأخيرا جعل الرمز نموذجا حيا فى مسرحيته « أندورا » (١٩٦١) .

* * *

(١٠)

فريدريش دورينمات

(١٩٢١ - ١٩٩١)

لم تكن نهاية الحرب العالمية الثانية بشيرا ببداية جديدة للأدب السويسرى باللغة الألمانية ، وذلك لأن الحرب لم تمس سويسرا بل مرت عليها وكأنها جزيرة وسط بحر متلاطم الأمواج .

أما الجديد فقد جاء به كل من ماكس فريش وفريدريش دورينمات ، اللذان اكتشفا فراغا فى المسرح الألمانى بعد الحرب ، مما جعلهما على مدى عشر سنوات أهم كاتبين مسرحيين باللغة الألمانية .

حاول دورينمات أن يصوّر يأس فترة عاشها هو نفسه متشائما متطرفا مستخدما المبالغة الغريبة وأسلوب الكباريه والأوبرا والمسرحية البوليسية الشعبية فى محاولة لمنع أى توافق للموقف المأساوى .

وتتميز مسرحياته أولا بالهزلية ، وثانيا بالمحاكاة الساخرة جملة وتفصيلا ، مثل «زواج السيد مسسبى» (١٩٥٢) ، و«هبط الملاك فى بابل» (١٩٥٣) ، و«زيارة السيدة العجوز»

(١٩٥٦) ، و« علماء الطبيعة » (١٩٦٢) ، و« الشهاب » (١٩٦٦) وغيرها . فهذا هو الطريق الوحيد من وجهة نظر دورينمات للتفاهم مع الحقيقة التى لا تتغير فى مواجهة الكارثة المخيفة .

أما نثره فهو قبل كل شىء محاكاة ساخرة للقصص التاريخى والرواية البوليسية . فقد حاول فى قصته « أبو حنيفة وعنان بن داود » (١٩٧٦) أن يختزل الصراع العربى الإسرائيلى عبر التاريخ بحرية وخيال ، كما حاول فى رواية « الوعد » (١٩٥٨) أن يقلب الشكل المعتاد للرواية البوليسية رأسا على عقب من باب اللعب الفكرى بتقديمه لقضية لا حل لها .

* * *

(١١)

جونتر جراس

(١٩٢٧ - ٠٠٠)

من مواليد جدانسك من أم هولندية وأب ألمانى ، وظل بها حتى صار شابا مما جعل له تأثيرا على إنتاجه الأدبى فيما بعد . كما عايش الحرب العالمية الثانية بوصفه واحدا من شباب الجيش الهتلرى ثم مساعدا فى المدفعية المضادة للطائرات وأخيرا جنديا يحمل السلاح إلى أن أصيب وبقى تحت الأسر الأمريكى حتى عام ١٩٤٦ حيث بدأ عمله فى الريف وسرعان ما أصبح مثالا فى أحد المصانع فى مدينة دوسبدوف .

أما دراسته فقد كانت من عام ١٩٥٢ فى أكاديمية دوسلدورف للفنون ، ثم فى المعهد العالى للفنون التشكيلية فى برلين . كما عاش فترة طويلة فى باريس وإيطاليا ، ثم فى برلين من عام ١٩٦٠ حتى عاد لريف إحدى جمهوريات ألمانيا الاتحادية . هنا بدأ جراس كمثال ونحّات وشاعر وقصاص ، ثم تركز إنتاجه مع مطلع عام ١٩٥٨ فى النثر القصصى دون أن يترك اهتماماته الفنية الأخرى . بيد أنه اشترك فى المعارك الانتخابية بمجلس النواب الألمانى مؤيدا للديمقراطيين الاشتراكيين دون أن

يكون عضوا فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى (SPD) ، مما جعله يمثل ذلك الاتجاه الجديد للترابط الصريح بين الأدباء والحياة السياسية لمجتمعهم .

أما أعمال جراس الأدبية الثلاثة التى عرفت فيما بعد بثلاثية جدانسك ، كما تدل طريقة القص بها على اقتداء جراس بما سلف من روايات الخرافات الأوروبية العديدة .

وإذا انتقلنا لرواية « الطبلة الصفيح » التى حقق بها جراس نجاحا أدبيا غير معتاد ، نجدها تحكى - من زاوية الأنا على لسان قزم محتجز بمستشفى الأمراض العقلية - تاريخ ألمانيا من ١٩٤٥ حتى ١٩٦٦ ، وتنقسم هذه الشخصية نصفين : أولهما : طفل قد وقف نموه عند بلوغه الثالثة من عمره . وثانيهما : عفريت بدأ دقاته عند الطبلة الصفيح إعلانا لنقد اجتماعى لهذه الفترة وعواقبها .

كما روى جراس فى قصته « القطة والفأر » بصيغة الأنا جريمة قتل ترجع لتأثيرات نازية . أما فى روايته « سنوات الكلاب » فقد عاد من جديد لعرض صورة السياسية فى النصف الأول من القرن الحالى فى ألمانيا . ثم ظهرت بعد ذلك روايتا جراس اللتان تعبران عن موقفه من المجتمع والسياسة الألمانية المعاصرة ؛ أولهما : رواية « التخدير الموضعى » التى وقعت أحداثها فى برلين عام ١٩٦٧ وتعرض مشاكل الشباب .

وثانيتهما : رواية « من يوميات القوقعة » التى تعكس ما اكتسبه جراس من خبرات فى عملية الانتخابات عام ١٩٦٩ .

أما مخطوطة روايته الأخيرة « حقل واسع » فقد لقيت صدى إعلاميا واسعا نتيجة للزوبعة التى أثارتها ولم يشهد مثلها تاريخ الأدب الألمانى فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية ، حيث انهال عليها سيل عارم من النقد الأدبى اللاذع . وقد تناولت الرواية مائة وخمسين عاما من تاريخ ألمانيا عبر الحياة اليومية فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة ، كما أثبتت قدرة جراس اللغوية الهائلة . هذه الرواية التى ما إن تم نشرها حتى لاقت إقبالا كبيرا وتم توزيع ١٧٠ ألف نسخة منها ، إثباتا أن النقد لم يلحق بها أى ضرر .

حصل جراس على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٩ .

الفهرس

صدر من آفاق عالمية

١ - تنبؤات
شعر : بيفر / زجراجن
ترجمة : د. يسرى خميس
يوليو ٢٠٠١

٢ - اعتراف منتصف الليل
رواية : چورچ ديهامل
تعريب : د. شكرى عياد
أغسطس ٢٠٠١

٣ - الزيتونة والسنديانة

نصوص شعرية مترجمة ودراسة عن الشاعر
عادل قرشولى
د. عبد الغفار مكاوى
سبتمبر ٢٠٠١

٤ - بلبل واحد لا يصنع ربيعا
مختارات من القصة العالمية
ترجمة د. حمادة إبراهيم
أكتوبر ٢٠٠١

٥ - شراك القدر

مسرحية : أنطونيو بوريو بييخو

ترجمة : د. طلعت شاهين

نوفمبر ٢٠٠١

٦ - الأرض الخراب وقصائد أخرى

شعر : ت . س . إليوت

ترجمة : د. لويس عوض

تقديم : د. ماهر شفيق فريد

ديسمبر ٢٠٠١

٧ - فى البحث عن ڤاليرى (رواية)

تأليف : ليج مايكلز

ترجمة : مى رفعت سلطان

يناير ٢٠٠٢

٨ - زديج أو القضاء (قصة شرقية)

تأليف : ڤولتير

ترجمة : د. طه حسين

تقديم : نبيل فرج

فبراير ٢٠٠٢

٩ - قصائد امرأة سوداء بدينة

شعر : جريس نيكولز

ترجمة : نانسى سمير

مارس ٢٠٠٢

١٠ - **عاشق من مونت كارلو (مختارات قصصية)**
تعريب وتقديم : عبد القادر حميدة
إبريل ٢٠٠٢

١١ - **الحب والأسى (مسرحية صينية)**
تأليف : (باى فنجكس)
ترجمة وتقديم : سمير عبد ربه
مايو ٢٠٠٢

١٢ - **ذلك العالم المدهش**
(حوارات مع كتاب عالميين)
ترجمة وتقديم : حسين عيد
يونيو ٢٠٠٢

١٣ - **شعر السبعينيات فى إسبانيا (دراسة ومختارات مترجمة)**
د. حامد أبو أحمد
يوليو ٢٠٠٢

١٤ - **المسرح الهندى (التراث والتواصل والتغير)**
تأليف : د. نيميتشاندا جين
ترجمة : د. مصطفى يوسف منصور
مراجعة : أ.د. منى أبو سنة
أغسطس ٢٠٠٢

١٥ - مختارات من روائع المسرح العالمى
ترجمة وتقديم د. نعيم عطية
سبتمبر ٢٠٠٢

١٦ - الأغنية الأخيرة
مختارات من الشعر الصينى
تأليف : تشانج شيانج - هو
ترجمة : زكريا محمد
أكتوبر ٢٠٠٢

١٧ - أفضل صديقاتى (مختارات من القصة العالمية)
ترجمة : مفــرح كريم
نوفمبر ٢٠٠٢

١٨ - الطاغية (ومسرحيات أخرى)
ترجمة د. جمال عبد الناصر
ديسمبر ٢٠٠٢

١٩ - يقظة امرأة (رواية)
تأليف : كيت شوبان
ترجمة : د. أحمد الشيمى
يناير ٢٠٠٣

٢٠ - مختارات من حكايات الشعوب

ترجمة وتقديم : رأفت الدويرى

فبراير ٢٠٠٣

٢١ - خمس مسرحيات نو حديثة

تأليف : يوكيو ميشيما

ترجمة : عبد الغنى داود

: أحمد عبد الفتاح

مارس ٢٠٠٣

٢٢ - سر بين اثنين

(مختارات من القصة القصيرة العالمية)

ترجمة : محمد رجب

أبريل ٢٠٠٣

٢٣ - ملحمة جلجاميش

ترجمها عن الألمانية : د. عبد الغفار مكاوى

راجعها على الأكدية : د. عونى عبد الرءوف

مايو ٢٠٠٣

٢٤ - شعراء وقصائد

باقة من بستان الشعر اليونانى الحديث

ترجمة عن اليونانية ودراسات : د. نعيم عطية

يونية ٢٠٠٣

٢٥ - فى الحب والحرية والمقاومة

مختارات من الشعر العالمى

ترجمة وتقديم : د. حسن فتح الباب

يوليو ٢٠٠٣

٢٦ - الحجر ليس بريشة

مختارات من شعر بيشنته ألكساندر

ترجمة وتقديم : عبد الهادى سعدون

أغسطس ٢٠٠٣

آفاق
عالمية

يقدم هذا الكتاب مختارات قصصية من الأدب الألمانى فى القرن العشرين كتبها مبدعون من ألمانيا والنمسا وسويسرا . والنصوص المنشورة هنا لكافكا و هوفمنستال وتوماس مان وبريخت وهرمن هسه وغيرهم ، تقدم صورة بانورامية للاتجاهات الأد المتتابعة على مدى القرن الماضى والمعبرة عن ت الحربين العالميتين .



الشركة الدولية للطباعة

الثمن: جنيهان